الدين العربي
كتبه نور الدين

إهداء: إلى الأمّة التي هي الوطن.

اللغة العربية تفتقر إلى مرادف صريح لكلمة "ريليجون" الإنجليزية ، وأقربها عليها هو (الملة) ، وأزعم أن من أكبر الأخطاء المعرفية التي ارتكبناها بعضا من هذه الترجمات ، التي جعلت الدين رديفا لـ"ريليجون" ، والإيمان رديفا لـ"بيليف" ، وحتى كلمة معتقد فهي ليست رديفا مناسبا ، ولذلك سنقرر اصطلاحا أن كلمة ديانة حديثة الشيوع تعني "ريليجون" ، وكلمة معتقد تعني "بيليف" ، وسنوضح لماذا رددنا الترجمة الظالمة بدين وإيمان للكلمتين ، في الفقرتين القادمتين.

الدين ، وضحت في عدة مواضع ، كما فعل غيري ممن سبقوني في هذا الحديث ، أن كلمة دين غير معنية أبدا بتصور الإنسان عن الغيب ، فهي تعني ما له عليك سلطان ، تدين له ، فالديان هو الحاكم ، ودين الملك هو حكمه ، والدَّيْن هو اقتراض المال الواجب السداد ، والمدان هو المحكوم بجرم ما ، والمدين هو العبد ، والمدينة هي البلد التي ينتظمها نظام حكم ما ، وعلى ذلك فالدين هو النظام المعمول به في حكم قرية ما أو مجموعة من الناس.

الإيمان ، لا أعلم أن غيري سبقني إلى توضيح معنى هذه الكلمة ، ربما لأنه واضح جدا عند أهل اللغة ، ولكني أثبته

في مقالات أخرى من قبل ، ومعناها الذي أزعم طبيعي للغاية ومتســـق مع ســـائر اشـــتقاقات الكلمة ، فالإيمان هو عكس الريب ، والأمن ضـــد الخوف ، والآية (...أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف) تعنى بالانتقال من حال الجوع إلى حال الطعَم ، ومن حـال الخوف إلى حـال الأمن ، والمؤمن في الحديث هو "من أمنه الناس" ، وهو المؤتمن على أمانة أو في جوار ، مأمون الجانب من الخيانة ، ونســتطيع أن نقول: إن المؤمن هو من يؤدي الأمن. أي من يتعـاهـد على كف الأذى بعمومه عن جماعة ما ، ومنع كل ما يســـبب لهم الخوف ، ويفي بذلك العهد.

هذان المعنيان الحقيقيان لكلمتي دين وإيمان ، يضـــعاننا أمام مأزق تســـمية مصـــداق جديد ندرك وجوده اليوم ، ولا أعرف له اسما قديما ، وهو التصور المشترك عن الغيب عند جماعة من الناس ، لاســـيما من يتبع رســـالة محمد بن عبد الله ، ولذلك قررنا في المقدمة أن نســمي هذا الشـيء ديانة ، ونسمي التصور عن الغيب معتقدا ، فالمعتقد المشترك عند جماعة من الناس هو الديانة ، وعلى ذلك نحتاج تخصـــيص اســـم للمعتقد الذي يشـــترك به متبعو الرســـول محمد ، في معتقده لا الانضواء تحت دولته ، فهل نسميه الإسلام ؟

الإسلام ، لغةً ، من الجذر سلم ، وهو أداء السلام ، ولا نعني بذلك "السلعمة" أي إلقاء كلمة السلام: السلام عليكم ، بل

هو تأدية السلم ، أي ألا تقاتل ولا تؤذي أحدا بقول أو فعل ، إلا دفاعا ، وفي الحديث: (المسلم من سلم الناس من لسانه ويده) ، وفي هذا نرى تطابق المعنى المعجمي مع استخدام الرسول في الحديثين المشار لهما حول الإيمان والإسلام ، وبهذا فاسم الإسلام لا يصلح لتخصيص الكلام عن المعتقد المشترك لمن يتبعون الرسول محمد.

وخلال هذه المقالة ، بأجزائها سنصطلح على هذا المعتقد بكونه "الديانة الإسلامية" ، وعلى متبعيه بأتباع الديانة الإسلامية ، والنسبة لهذه الديانة هي إسلامي ، وليس مسلم ، فالمسلم كما قررنا وقرر الحديث المروي عن الرسول محمد هو مسلم في سلوكه ، يكف لسانه ويده عن الناس ، وقد انتبه الباحثون لهذه المسألة فسموا المسلم مسلما سلوكيا ، وجاروا الناس في اصطلاحهم الحديث حول أن المسلم هو متبع الديانة الإسلامية ، ولكن هذه المجاراة خلقت المزيد من التعقيد وما دام القرآن والحديث ومعاجم اللغة في صف أن المسلم هو من يكف أذاه ، فلا نجد هذا مبررا ، ونعيد القول إلى سيرته الأولى ، ونبتدع اسما حديثا للمصداق الحديث.

الدين العربي ، إذًا ، هو النظام الحاكم للعرب ، فعن أي عرب نتحدث ؟ هل هم عرب اليوم ، أم عرب نطاق زماني مكاني محدد ؟ وهل ثمة عرب سواهم في عصرهم بما يستحق ألا

نسـمي دينهم/نظامهم بالدين العربي ؟ وإن كان فكيف نجوِّز لأنفسـنا هذه التسـمية ؟ سـنتابع في هذا الجزء تحديد من هم العرب الذين نعنيهم ، بكونه جزءًا من اسم المقال ، وإيضاح نصف الاسم لا يجوز مع ترك نصفه معوَّما.

العرب ، تتحـدث الروايـة المتـأثرة بـالتوراة ، عن العرب ، فترجعهم ليعرب بن قحطان ، وأن العرب من ولد إسـماعيل بن إبراهيم الآرامي ، وترجع التسـمية له ، ثم تضـطرب فترجع التســمية لمعنى العُربة وهو الوضــوح ، ومنه الإعراب ، أي اللاحقة الصــوتية التي تظهر وظيفة الكلمة في الجملة بغض النظر عن ترتيبها ، وتزعم الاســم خاصــا باللغة العربية الفصــيحة المعروفة اليوم ، ومن بنت وجدانهم هذه اللغة كلغة أم ، ونتوه في كلام السـابقين بين النسـب/العِرق وبين الثقافة/اللغة ، فلا نمسك معنى صلبا.

ولم يكن ثمة داع لنحت اسـم حديث لمفهوم الأمة العربية ، حتى اشـتبكنا مع المحتلين ، لأننا لم نعرف أنفسـنا بصـورة تميزنا عن غيرنا من شعوب الأرض في السابق إلا تحت اسم (أهل الإســلام) ، وبما أن واقعنا ينفي الســلام الذي تعاهد أجدادنا عليه كنظام لهم ، فلم يعد اسم أهل الإسلام كافيا ، لاســيما وأنه يختلط عند القارئ بأتباع الديانة الإســلامية ، والحقيقة أن من أهل الإســلام نصــارى ويهودا ودهريين وصــابئة مندائيين وعددا لا يحصــيه قلم ولا تكفيه دواة من

الملل المعتقدية ، الديانات ، وبهذا فقد احتاج المنظرون لفكرة الأمة الواحدة من القوميين العرب ، إلى اسم يشمل الأمة جمعاء بكافة مللها ، فقالوا: الأمة العربية.

الأمة الواحدة التي نتحدث عنها أقدم من اسم (عرب) أصلا ، وأضرب في الأرض جذرا من اللغة العربية الفصيحة التي نعرفها اليوم ، وهي تشمل الشحريين والمهريين في عمان ، والعبيديين والآثور والسومريين والكلدان والأكديين في وادي النهرين ، والسوريان الآراميين والفينيقيين والكنعانيين في سوريا الكبرى ، وسكان وادي النيل مما يسمون ظلما بالفراعنة ، والطوارق التامشق ، والأمازيغ / الأمازيج القبائلية في ليبيا الكبرى ، وتحتها ما شئت من سكان هذه المنطقة الجغرافية التي نسميها اليوم (وطنا عربيا) ، فلماذا نسميهم بالعرب ؟

الفكرة هنا اصطلاحية ، فنحن نلمس وحدة الثقافة والأساطير واللغات ، وحركة القبائل والقوافل ، وأن هذه الجماعة من الناس على مر التاريخ لم يكن يفصلها حاجز جغرافي معتبر ، فهم قبائل (جماعات متصلة نسبا) وشعوب (جماعات متصلة بأنها تسكن شِعبا واحدا) مختلفة من قوم واحد ، وفي العموم فكلمة قوم لا تفي المعنى ، ولا كلمة أمة ، ولكن لأنها مصاديق حديثة احتجناها بعد الاشتباك مع أمم أخرى يفصلنا عنها حواجز جغرافية معتبرة ، فقد تجوزنا بأن

نوسع مفهوم القوم والأمة ، وهذا مما تقبله اللغة ، ونعود للسؤال عن أي الأسماء أنسب لهذه الأمة الواحدة.

كان من الممكن اللجوء لأقدم الأقوام التي تنبعث منها هذه الثقافة ، مما نعرفه اليوم ولكن علم التاريخ يتطور وقد نكتشف أقدم منهم ، فيمكن أن نقول: إننا كلنا عبيديون ، نسبة لتل عبيد. لكن هذا قد يتغير ويصبح ظالما لو اكتشفنا قوما أقدم منهم ممن سكنوا المنطقة ، ومن الممكن أن نسمي أنفسنا آراميين بحكم تقاطع القدم مع الدولة الأولى ذات النظام ، ونعد كل ما خلاها من ضواحيها وأطرافها ، ومن الممكن أن نسمي أنفسنا مصريين ، بحكم أن حضارة وادي النيل هي الأطول عمرا ، ومن الممكن أن نسمي أنفسنا ليبيين بحكم أن ليبيا الكبرى والتي تشمل شمال إفريقيا كله ، هي أكبر بقاع الوطن العربي مساحة ، وبين أن نعتمد المساحة أو القدم أو قدم النظام أو طول العمر أو سواها من المحددات وقع الاختيار على اسم عرب.

كلمة عرب في أصلها تحوير عن كلمة اسم الآراميين ، كما يقول بعض المؤرخين ، ولغتهم هي اللغة الأقرب لكل ألسنة الناس في الوطن العربي بحكم سيادة الإسلام نظاما لمدة طويلة من الزمن ، والحضارة العربية امتدت لعمر طويل جدا ، وهو الأقرب زمنا لزماننا نحن ، الذي نعيش فيه اليوم ، وتتمتع باتصال ثقافي ولغوي لا يباريه اتصال ، وفي الوقت

نفســـه لا يعرف قدم العربية لأن البدو لم يكونوا من أهل الأوابد فيتركوا لنا أهرامات أو مدنا مشـيدة ، وكل ما نحدد به نشأتها هو تخرصات لا أكثر ، والأهم من ذلك كله أن العرب انتشـــروا على مد البوادي والصـــحاري ، فلم ينحصـــروا في الحواضـــر المختلفة ، المتفرقة في الزمان والمكان على مد الوطن العربي ، وقد شـــبهت الأمر في مقالات أخرى ، بأن الحواضـر العربية كانت جزائر في بحر البدو ، ولأننا نشـترك كبلاد عربية بوجود القبائل العربية بمعناها الضيق ، ولأنهم كانوا القوة العسكرية الضاربة في عهد السيف والرمح ، ولأن الديانة الإســلامية بنصــها المرجعي وهو القرآن هي أكثر الديانات انتشارا بين سكان الوطن العربي ، كانت التسمية (الأمة العربية).

يبقى أن التسـمية في عهد التشـظي وسـيادة النفظ الخليجي القذر ، أوغرت صـدور أهل الأمصـار لاسـيما من اضـطهدوا تحت اســم العروبة أو الديانة الإســلامية ، وشــعروا أن خصــوصــيتهم تســلب منهم ، مثل الكرد وهم من ســكان المنطقة وتســميتهم جاءت على الراجح من الفارســية ، والأمازيغ ، وسـواهم من أهل الديانات الأخرى سـوى الديانة الإسلامية ، وحتى أصحاب الهوية الوطنية السابقة في النشأة على الطور الحالي من أطوار القومية العربية ، كالمصــريين مثلا ، فهم يجدون أنهم أعرق من أن تطلق عليهم تســمية اختصت لزمن طويل بسكان الجزيرة العربية ، وهذا في رأيي

مبرر ومشـــروع في ســـياقـه ، لكن مع بعض الإجراءات الاصطلاحية نستطيع فك الاشتباك ، وإزالة التحفظ.

خلال هذه المقالة ، ســأنهج نهجا اعتمدته منذ مدة ، وهو أن أســـمي عرب الجزيرة العربيـة بـالجزيريين ، والجزيريون هم العرب الذين التحقوا بقبائل وحواضـــر عربية خارج الجزيرة العربية بعد ســـيادة الإســـلام نظاما للحكم فيها ، أو بقوا في الجزيرة العربية ، ولهجاتهم ذابت في لهجة القرآن ، وهي لغة الشـعر المشـتركة الموحدة عندهم من قبل القرآن ، وعممت بفعل انتشـار الإسـلام نظاما ، الديانة الإسـلامية معتقدا على سـائر الأمصـار ، ولكنها اختلطت بلهجات الأمصـار ولغاتهم حتى نتجت العربية الحديثة التي نتكلم بها اليوم ، ولا مانع عند أي قومي عربي سـواء كان من أصـل أمازيغي أو قبطي أو سوري أن يسمع الشكوى من أهله جراء اضطهاد الجزيريين لهم في يوم من الأيام ، لكن قصر اسم العرب على الجزيريين تسبب في وضع عقبات أمام الوحدة العربية المبتغاة ، وأمام قراءة نظام الإسـلام ومراجعته ، وأمام فهم الديانة الإسـلامية أيضا.

هنا فقط نســتطيع أن نرتاح لكون اســم المقال مفهوما ، كما يريده كاتبه ، وللقارئ أن يختلف معي على المصـــطلحات ، لكنه لن يخرج من إطار النزاع اللفظي ، الذي يحله أن أتجوَّز بتغيير تسمية ما ، أو يتجوَّز هو بقبولها ، وسيكون المقال عن

الدين العربي ، لاسـيما الإسـلام وفك اشـتباكه عن الفكرة الحديثة الخاصـة بالديانة الإسـلامية ، وخلال هذا سـنتطرق كثيرا لتاريخ المعتقدات والأنظمة في الحضـارة العربية ، قاصرين بحثنا في المعتقدات على ما يخص الجزيريين ، وهو متصل كما سنبين في غير موضع بالمعتقدات الموجودة في الوطن العربي كله.

في هذا الجزء سـنتحدث عن ضـرورة هذا المبحث ، بعد أن وضـحناه في الجزء السـابق ، وضـرورة هذا المبحث تحتاج التطرق لمسـائل عدة لتوضـيحها ، فالحديث عن الإسـلام كنظام سياسي ، لا يستقيم دون خلفية ، ودون الحديث عما يسمى "الإسلام السياسي" ، ودون التطرق لتحوُّل الإسلام إلى ديانة.

طبقا للجزء الأول من المقال ، نحن نتحدث عن النظام الذي شـمل سـكان الوطن العربي ، الذين يمثلون لنا أمة واحدة ، ولكن كي نكون أكثر دقة ، لابد أن نشـير إلى أنه لم يمر على الوطن العربي ساعة وحدة طول عمره ، فالمساحة الشاسعة والكثافة السـكانية القليلة ، وتوزيعها في حواضـر متباعدة ، في زمن لم تكن الاتصـالات والمواصـلات فيه بالكفاءة التي نعرفها اليوم ، كلها قد ضـمنت انقسـامات للتشـكيلات السـياسـية وتحريكا دائم التغير لحدود الحواضـر والأنظمة ، لكنها كلها اصـطبغت بالصـبغة الإسـلامية ، خلال الطور الإسلامي للمنطقة.

ليس هذا بالأمر الغريب ، لاسـيما أن ألمانيا الموحدة اليوم كانت قبل الثورة الصـناعية مكونة من 400 إمارة متفرقة ، وبعد العهد النابليوني وصـلت إلى 38 ، ولم تتوحد ألمانيا إلا

تحت حكم بسمارك ، وهذا مجرد مثال ، ولهذا يرجع المؤرخون فكرة الدولة القومية إلى أنها من منتجات الثورة الصناعية ، وهذا خاص بفكرة الدولة من بعد معاهدة "وستفاليا" ، لكن غيلنر وهو مؤلف أحد أهم الكتب في هذا المجال "الأقوام والقومية" يعترف بخصوصية المنطقة العربية ، وأنها عرفت نظاما قوميا مجدولا فيها وهو الإسلام ، وهذا ليس الاستثناء الوحيد الذي يساق كشذوذ عن فكرة القومية في العالم ، فثمة استثناءات أخرى مثل المملكة المتحدة ، وهي تختلف في سياقها التاريخي عن أوروبا القارية ، وكذلك باكستان والكيان الصهيوني الذي يروّج لكذبة القومية الدينية اليهودية ، ففكرة ربط الدولة القومية بسياق الثورة الصناعية وقصره عن أي سياقات أخرى ، لا يمكن فصلها عن فكرة المركزية المعرفية الأوروبية.

نحن إذًا نتحدث عن شكل مختلف من أشكال القومية ساد من خلال دين / نظام الإسلام ، كان من الممكن البناء عليه في سبيل تلبية الشروط التاريخية لنهضة الأمة العربية ، وفكرة الشرط التاريخي مهمة للغاية ، يجب توضيحها لنعلم أهمية المبحث بحد ذاته ، ولماذا تشغل فكرة الوحدة العربية هذا المكان المركزي في طرحنا ، ولماذا نحتاج لها لتحليل الإسلام نظاما ، وفك اشتباكه مع ما اصطلحنا على تسميته بالديانة الإسلامية.

العالم اليوم مكون من دول ، وغالبية الكيانات السياسية التي نسميها دولا ، تتطابق حدودها القومية مع حدودها السياسية ، وقد يكون الوطن العربي أكبر استثناء لهذه القاعدة ، وبات العالم مؤخرا يتجه لتوحيد قوميات مختلفة ذات أنظمة سياسية متباينة تحت اتحادات اقتصادية ، وهذا لا يمكن فصله عن علوم مثل الجغرافيا السياسية ، واقتصاديات الحجوم ، ومن يعرف هذه المباحث التي لن نفصل فيها ، يعرف لماذا لا يمكن أن نتحدث عن دولة ناجزة النهضة في الوطن العربي ، دون الحديث عن شكل من أشكال الوحدة العربية ، فالدولة القطرية بطبيعتها عاجزة عن المنافسة في هذا العالم.

القوماوية (الشعور القومي دون فكر قومي) الموجودة عند شعوب الدول العربية ، مضافة إلى تشابه النسيج اللغوي والطائفي ، وشيوع اللغة العربية والديانة الإسلامية ، وتقسيمة الحدود على الورق بصورة لا علاقة لها بالجغرافية والديموغرافية العربية ، كل هذا ، يحول دون وجود فرصة لاستقلال دولة عربية عن محيطها بصورة تامة ، لاسيما في عصر الاتصال الفائق ، ولاحظ أن هذه الفقرة تتحدث عن أي استقلال كان ، وليس عن دولة ناجزة النهضة ، أي أن العربي في عمومه لا يحضر في التاريخ المعاصر كصاحب دولة ذات سيادة ، إلا باستقلال دولته ، الذي يستحيل أن يوجد إلا لدولة عربية حدودها السياسية مطابقة لحدود الوجود

الجغرافي للأمة الواحدة التي اصطلحنا على تسميتها بالأمة العربية.

ثم تأتي قوانين الجغرافيا السياسية ، لتوضح سبب هذه التبعية للغرب في الوطن العربي ، فهذه الدول القطرية الوطنية موجودة في إقليم واحد ، يمكن تقسيمه إلى أقاليم عدة ، وعلى مستوى الإقليم الكبير ومستوى الأقاليم الفرعية تبقى قوانين الجغرافيا السياسية عاملة ، ولهذا فثمة نزاع بين الدول المركزية في كل إقليم ، وثمة تبعية هائلة عند الدول الصغيرة الطرفية للقوى العالمية المهيمنة ، وما دامت هذه هي الحال ، فنحن نتحدث عن وطن تملؤه الاضطرابات السياسية والنزاعات على الحدود ، والتداخل القبلي في المناطق الحدودية ، وربما الحروب الأهلية والطائفية لا قدّر الله.

الباحثون الغربيون العاملون لمصلحة أممهم ، واقتصاداتهم ، يعرفون هذه الحقائق ، وهي مدونة عندهم في أدبياتهم السياسية ، والأطلنطيون بالذات ، ورثة أوروبا الاستعمارية (دول حلف الناتو) ، يعرفون أن وجود دولة قومية عربية موحدة يهدد هيمنتهم على العالم ، فإضافة إلى أننا نتشارك مع الأوروبيين الإقليم المتوسطي ، فالوطن العربي جاثم على أهم المعابر البحرية التي تعتمد عليها التجارة الدولية ، وهي عماد اقتصاد عالم اليوم.

تنبه إلى هذه النقطة اللورد هنري فيسكاونت بالمرستون ، وزير خارجية ورئيس وزراء بريطانيا الاستعمارية ، ونادى بإحلال كيان غريب في قلب الوطن العربي قرب قناة السويس ، وهي لم تزل فكرة ، يحول هذا الكيان دون مغامرة وحدة عربية أخرى ، بعد مغامرة محمد علي باشا الكبير ، التي انتهت بهزيمته واكتفائه بملك مصر والسودان ، ومن نافلة القول إن الدولة العثمانية ساهمت بخلق هذا الكيان الغريب الذي انتهى ليكون الكيان الصهيوني ، ووجد العرب أنفسهم ، إثر طرد المحتل التركي ، أمام شرط تاريخي جديد ، لا يستقيم معه الاكتفاء بنظام الإمارات الإسلامية.

إثر التفاعل مع الاحتلال الأوروبي الجديد ، وإجلائه بطرق مختلفة عن بلادنا ، نشأت الدولة القطرية شيئا فشيئا تحت الوصاية الأوربية ، وبقيت هذه الدول تتمتع باستقرار نسبي حتى عهد الثورة المعلوماتية ، فاستغل الأساس الإسلامي (تاريخ النظام ، ووجود الديانة الإسلامية) في زعزعة استقرار هذه الدول ، وبات ما يسمى بالإسلام السياسي يلعب في فريق الغرب ضد مصلحة بلاده ، رغم أن أتباعه يظهرون العداء الغرب ، لكن نحن نتحدث عن وقائع ، حولت دولا بكاملها إلى خرابات.

سيلاحظ الباحث في تاريخ حركات ما بات يعرف بالإسلام السياسي ، العلاقةَ المثيرة للجدل بين حركات الإسلام السياسي والغرب ، ونحن لا نخصص المقالة لهذا المبحث ، وإنما نقصر حديثنا على فكرة الدين العربي ، مع إشارات لابد منها في هذا السياق ، مما يفضي بنا للحظة نشوء فكرة "عودة الخلافة" ، التي كانت ما تزال يتصاعد تأييدها في قلوب الناس حتى رأى الناس الإرهاب في الجزائر ، ثم الإرهاب الذي صاحب ما يسمى "ربيعا عربيا" ، وبين خمود وصعود لهذه الفكرة وجد العرب أنفسهم على أرجوحة ما يزال شوطها يقصر أكثر فأكثر ، نتيجة انقسام المسلم العربي على نفسه ، بين تأييد فكرة مؤسسة على ديانته ، وبين حياته ووجوده في دولة آمنة مستقرة ذات بنية تحتية.

وفي سبيل الوصول إلى حل يرضي جميع الأطراف ، حاولت الدولة العربية تحييد الإسلاميين بالاقتداء بأوروبا من خلال فكرة "فصل الدين عن الدولة" ، ولأن الإسلام ليس مجرد ديانة يمكن فصلها عن الدولة بسهولة ، فقد وقعت الأنظمة التابعة في مآزق في التعامل معه ، فأقرت قوانين الأحوال الشخصية بمرجعيات إسلامية ، ونافقت حركات الإسلام السياسي ، وبات دعاة ما يدعى بالتنوير ، ودعاة العلمانية يعاملون الإسلام على أنه ديانة ، لا على أنه دين/نظام ، ونشط البحث في سبيل صيغة تمكننا من العيش وتحريك التاريخ ، لكن في اتجاهات منطلقها التاريخي خاطئ.

حاول بعض الباحثين تحريك الديانة الإسـلامية لتتآلف مع الدولة الوطنية الحديثة ، وحاول آخرون تحريك الدولة الوطنية لتتلاءم مع أفكار الديانة الإسـلامية ، ولكن ما دام الجذر لا يجد ماءً فلم يثمر زرعهم شيئا ، والعقم ما يزال ماثلا أمامنا حتى اللحظة ، فكان لابد من البحث بمنطلقات مختلفة تماما ، توصلا لوجود عربي قادر على الفعل التاريخي حسب الشرط التاريخي لعالم اليوم ، ولهذا كله شرعت في كتابة هذه المقالة ، التي أزعم أنها ستفك الاشتباك العقيم ، وتقدم فهما جديدا لفكرة الإسلام ، وللديانة الإسلامية.

كان الجزء الأول مخصصا لشرح العنوان وعن أي شيء نتحدث ، بينما مرَّ الجزء الثاني ونحن نشير لأهمية هذا المبحث ، وقد نستطيع الآن القول: إننا قد وضعنا الأرضية التي نحتاج للخوض في الموضوع ذاته. وسيكون هذا الجزء مخصصا للتعريف بأن الإسلام نظام ولماذا علينا ألا نقبل خلطه بالديانات ، لكن توضيح الخلل في الخطابات ، التي حاولَتْ حل المعضلة بطرق أخرى ، ضروري في هذا السياق.

وصلنا من قبلُ لانقسام الإنسان "المسلم" على نفسه ، فهو يريد عيشا كريما في دولة مستقرة ، وهو لا يكاد يجد هذا ، لأن وجود دولته الوطنية وجود مزعزع قلق ، وذلك للأسباب التي وضحناها في الشرط التاريخي لعالم اليوم ، وهو من جهة أخرى يمتلئ بثقافته المنعجنة بديانته ، وديانته بدورها مليئة بالأوامر المتعلقة بنظام الحياة والسياسة ، وليست مجرد تصور غيبي وممارسات طقسية يؤديها بسلام ، وفهم هذا الانقسام ضروري لتشخيص أسباب التطرف ، فبالإضافة للجهل والفقر ، وهما السببان الشائعان ، اللذان بدورهما ينبثقان عن عجز الدولة العربية القطرية عن تحقيق مصالح شعبها ، وتبعية أنظمتها سياسيا للغرب والبنك الدولي وكل ما من شأنه تكريس انحطاط الواقع العربي ، فثمة أسباب أخرى أهمها: البحث عن المعنى للفرد والجماعة ، والحاجة إلى النظام المفتقَد ، والرغبة بالتغيير الجذري ، والشوق إلى

حال يكون فيها للعرب القدرة على تحريك التاريخ ، حتى أنهم يكررون قولا ينسبونه لعمر بن الخطاب: " نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإن ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله" وهذا يثبت أنهم إنما يبحثون عن المكانة لا عن الديانة ، فالعزة القومية هي المبتغى هنا.

كل ما سبق ذكره ، إذا رأينا تفاعله مع وعود جماعات ما يسمى بالإسلام السياسي ، يجعلنا شركاء في الوطن مع أناس لا يثقون بالعقد الاجتماعي الذي نرتضيه ، فقهاؤهم لا يقبلون دستورا آخر غير القرآن ، ويرون القانون الذي نطالب بتطويره وتفعيله ، مجرد "قانون وضعي" لا يزن شيئا أمام قانونهم السماوي ، ودستورنا مجرد "دستور كفري" مكانه عندهم القمامة ، وهؤلاء يخاطبون الناس ويكسبون الأتباع تحت عين الدولة ، بل ويتحكمون بالمناهج الدراسية لأبنائنا ، فأبناء المسلم ، وإن كان عَلمانيا يقر عقدنا الاجتماعي ، معرضون لخطاب الإسلاميين أثناء تلقيهم أفكار ديانتهم.

وهنا نعرف لماذا يشتمل هذا الجزء على موضوعيه: توضيح أن الإسلام ليس ديانة ، وتوضيح خطأ الخطابات الأخرى. لأن الخطابات الأخرى لم تتمكن ولن تتمكن من عزل المعقد/الديانة عن الأوامر التنظيمية والسياسية ، والديانة تضفي قدسية على الهراء السياسي الذي يلقي به "الشيخ" في رؤوس العامة. وكل تحريك للدولة باتجاه الديانة ، أو للديانة باتجاه أن تكون قابلة للتعايش مع نظام الدولة ، يجعلنا إما

أقرب لداعش أو أقرب للغرب الفرداني الذي تشـــكل ثقافته سـلاحا ضـد وجودنا كأمة. وهكذا حقَّ لنا أن نبحث عن حل آخر.

(الإســلام ليس ديانة)، نعم ، هذه "الحقيقة التاريخية" التي أســعى لإثباتها ، هي الخطوة الأولى باتجاه الحل ، وقبل أن نفهم كيف تكون خطوة باتجاه الحل ، وكيف نثبتها ، عليَّ أن أوضح كيف وصلت لهذه القناعة ، وأسرد لكم بعض الأسباب التي دعتني لها ، وكتعريف مبدئي بالفكرة أقدم إليكم أسبابي لهذا الادعاء:

- المعتقد بوصــفه صــورة عن الغيب ، هو في طبيعته أمر فردي ، لكن المدونـة الإســلاميـة مليئـة بـالتهـديـد والوعيـد بالقتل في الدنيا والعذاب في الآخرة لمن لا يقبل الإســلام ، والحرب في الدنيا هي ما يهمنا ، لاســيما إن كان مســلما بالميلاد ، وهذا تناقض عظيم بين قناعة فردية ، ووســيلة جماعية عنيفة غير مجدية لفرض هذه القناعة.
- كانت العرب إبان الدعوة المحمدية تعلن إســلامها فرادى وجماعات ، فتسلم قبيلة بقضها وقضيضها من خلال إسلام شــيوخ القبيلة ، فهل يعقل أن القبيلة كلها اقتنعت بمعتقد من خلال قناعة شــيخها ؟ لا ، أما الأفراد الذين أســلموا فقد التحقوا بالمدينة ، الدولة المحمدية.

• يرد في القرآن صـــراحة أن من يســـلم أو من يلقي الســـلم يحصـن نفسـه وأهله من الاعتداء ، وهذا يعني أن الإسـلام هو أداء السلام ، أي كف الأذى ، فمن كف أذاه عنك لا تستطيع محاربته حسب النص القرآني ، وليس من حسن الأخلاق أن تحارب إلا من يؤذيك ، حتى لو اختلف تصـــوره عن الغيب عن تصورك.

• يرد في وثيقة المدينة وصـــف المؤمنين مطلقا على يهود لا يشتركون مع محمد في التصور عن الغيب أبدا ، ومطلقا على قبائل بكاملها منها ما ليس يهوديا ولا يتبع الديانة الإسلامية ، فهم كقبائل تعاهدوا على كف أذى الآخر عن سـكان المدينة ومحيطها.

• المعنى العربي للفظة مســـلم ولفظة مؤمن الواردتين في القرآن صـــريح وواضـــح قبل وجود القرآن ، ولا يقبل عند من يعتقـد أن القرآن من عنـد الله ، وأنـه كلام عربي فصـــيح أن يخطئ في توظيف الكلمـات ، فيقولها وهو يعني معنى آخر ، أي المصدقين بمعتقد ما هنا.

• يضـــطرب "شـــيوخ" الديانة الإســـلامية في شـــرح اختلاف الإســـلام عن الإيمان ، اضـــطرابا كبيرا ، فكيف يقول القرآن لقوم إنهم ليسـوا مؤمنين (ولكن قولوا أسـلمنا)؟ فهل أقاموا حســب قول "الشـــيوخ" ما يســـمى بأركان الإســـلام دون أن يقبلوا المعتقد الذي يدعيه "الشـــيوخ" معنىً للإيمان ؟ هذا كلام لا معنى حقيقيا له.

• قبـل وجود الـدولـة الحـديثـة ، كـان الحُكم معتمـدا على الأحلاف العســـكريـة ، والمواثيق الاجتمـاعيـة ، الأعراف ،

وعندنا في المدونة الإسلامية أدلة كبيرة على أن الإسلام كان حلفا ، وحلفا نهائيا يمنع الأحلاف من بعده ، ومنها قول منسوب للرسول: (لا حلف في الإسلام).

• تاريخ الجزيريين وخصوصا مكة قبل الإسلام يوضح لنا أن خارطة من التحالفات بقيت ترتسم شيئا فشيئا ، قبل البعثة ، من حلف الأحابيش وحلف الفضول وحلف لعقة الدم ...إلخ ، ووصل الأمر للإيلاف ، فمن الطبيعي أن نفهم إسلام القبائل وإيمانها ، في السياق ذاته.

• قبول الأجوبة التي تقدمها ديانة ما ، للأسئلة الوجودية ، قبول غير نهائي ، فالإنسان يشك ويفكر ، يقبل أمرا ثم يرفضه ، يطور فهما عن فهم ، لكن القرآن يعامل الإيمان كعهد ، من يُخلِفه يستحق الحرب.

• لم يرد لنا خبر عن حروب شنها الرسول على أقوام ليس بين قومه وبينهم اعتداءات سابقة ، أو تنازع على ملكية الأرض ، أو نكث عهد وخيانة ، وإلا فكيف يزيد "كفر" من حاربهم الرسول عن "كفر" هؤلاء ، وكما تقول القاعدة الإسلامية المتداولة اليوم "ليس بعد الكفر ذنب" ، وهذا يعني أننا نتحدث عن حلف سياسي.

• الأصنام عند العرب كانت راياتٍ للقبائل ، والتوحيد جاء نقيضا لهذه الفكرة ، ولذلك استهدفها وإلا فهي مجرد حجارة.

• كان الرسول إذا رأى عصبية قبلية من أحدهم قال: "أنت امرؤ فيك جاهلية" ، ومعنى الجاهلية ليس مرادفا لعدم المعرفة ، إذ هي بمعنى التعدي على الآخرين ، كقول الشاعر (ألا لا يجهلن أحد علينا...).

• كلمات: كفر وطغيان وطاغوت ، ترد كنقائض للإيمان ، وهي كلها بمعنى التغطية ، والسيطرة ، وهكذا فقط يمكن شرح تضادها مع الإسلام والإيمان ، بكونها تعني الظهور على الناس وفرض لون واحد عليهم ، إن كان معنى الإيمان والإسلام كما قررنا.

• أقدم المدونات المفصلة في شأن العقيدة الإسلامية تعود للعصر العباسي ، فالعرب الجزيريون لم يكونوا معنيين بنقاش التصورات عن الغيب حتى احتكوا بالشاميين والقبط والعراقيين ، وكون القرآن "حمال أوجه" في هذا الشأن انقسم المسلمون عقديا إلى فرق كثيرة ، فهل من المعقول أن يكون المعتقد هو عماد الإسلام ثم لا يقال شيء واضح متكامل مفصل حول الأمر حتى جدالات المعتزلة!

• نجد التفصيل القراني في المسائل الحياتية واضحا بمقابل غمامة عظيمة تلف كل أمر يختص بالتصور عن الغيب ، أدت لوجود هذه الفرق العقدين كلها ، وكلها تستشهد بالقرآن لتثبت صورتها عن الغيب.

• جميع الطقوس الإسلامية كانت موجودة قبل البعثة ، وهذا يشمل الصلاة والصيام والزكاة والحج ، حتى أن الرسول ليس أول الموحدين ، وقد سبقه في ذلك رجال وفئات ، ومنهم من أدركه ولم يؤمن مع أنه مصدق بالله إلها واحدا ، فكيف نقول: إنه لم يؤمن!

• هتف بنو عجل والتغلبيون وكلهم من النصارى في معركة ذي قار باسم المحمدان (أي محمد) وهم نصارى ، وانتصروا

على الفرس ، وانضـموا لدولة الإسـلام طوعا وهم نصـارى ، ومنهم من هو على النصرانية حتى اليوم.

• الأغلبية السـاحقة لسـكان الشـام في عهد معاوية بن أبي سفيان كانوا نصارى ، وكان النصارى وزراء في دولته وبلاطه.

• رأيت لقىً أثرية من عهد معاوية ، تشمل مسكوكات ونقوشا وغيرها ، كلها تحمل رمز الصـليب ، والأمر _مرة أخرى_ غير مقتصر على النقود ، التي برر بعض الباحثين وجود الصليب فيها ، بكونها بيزنطية السك.

• حاكم سـبتة كان يوليان النصـراني ، وهو من اسـتجلب المسلمين لبلاده ، وأعطى السفن لهم ليساعدوا على ثورة في آيبيريا ضـد القوط ، نتج عنها الأندلس ، لاحظ أن يوليان بقي على دينه وحكم بنوه وهم على دينهم ، والجوامع تملأ سبتة.

• الأريسـيون الذين كانوا جل سـكان الأندلس كانوا نصـارى موحـدين ، لم يعجبهم فرض القوطيـة الكـاثوليكيـة عليهم بالقوة ، وبقوا على دينهم في العصـر الإسـلامي في الأندلس ، ومن أسلم منهم هاجر مع العرب عند سقوطها.

• قبل المسـلمون رواية رسـالة محمد إلى ملك الروم ، التي يقول فيها: (أسلم تسلم) ، فكيف يطالبه بالتصديق بمعتقد ما وهو لم يعرض عليه شـيئا من هذا المعتقد! بل وكيف يكاتب عاقل ملكا قائلا له (صـدق برسـالتي لتحافظ على سـلامتك)؟ لا يسـتقيم فهم شـيوع رواية شـيء كهذه إلا أن يكون معناها: (سالمني أسالمك).

• ترد لفظة المؤمنون بالقرآن ثم لا تتبع بماذا ، مؤمنون فقط ، وليس مؤمنون بكذا ، أي أنها لا تعني التصديق. بل وإنه ثمة آية تقول: (يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا...) فكيف يخاطبهم باسم يصرح بكونهم مؤمنين ثم يطالبهم بالإيمان ؟ لا يستقيم الأمر إلا أن يكون بمعنى: يا من تعاقدتم على الأمن اجعلوا عقدكم هذا لأجل الله.

• لم يأمر القرآن الرسول بقتال المنافقين مع أنه يصرح بتكذيبهم له ، ولكن سارع أبو بكر لقتال أناس مصدقين بالقرآن لأنهم منعوا الزكاة ، وهذا التباين يوضح أن الإسلام والكفر هي أعمال سياسية بعكس التصديق والتكذيب.

• الخوارج ، الذين قاتلهم علي بن أبي طالب ، كانوا حفظة القرآن وقرَّاءه ، ومع ذلك قوتلوا ، فلو كانوا مسلمين فهل كان لعلي أن يقاتلهم ، لكنهم خارجون على حلف الإسلام ، ناكثون بعهد بينه وبينهم ، ولك أن تحسب أحداث الفتنة التي سأتجنبها في الميزان ذاته ، فلو كان المصدق هو من يحقن دمه ، وليس المؤمن المحالِف ، فكيف يتقاتل مصدقان إذًا!

• الفروق العقدية التي نراها بين معتقد فرقة إسلامية ومعتقد فرقة إسلامية أخرى ، كثيرا ما تتجاوز الفروق بينها وبين ديانة أخرى كالمسيحية أو اليهودية.

وسأعود للفكرة مرة أخرى لأبينها ، لكن إنما أردت التعريف بها ، باستعراض ما يؤسس لها ، ونحن نشاهد هنا أن أيا ما سبق ذكره من نقاط لا يستقيم مع كون الإسلام ديانة ،

فالإســلام نظام ســياســي ، احتك بدعوات دينية وقفت في وجهه فردَّ عليها ، من وثنية إلى يهودية إلى مســيحية ، لكنه في شــق الديانة ليس إلا ردودا ، وليس فيه خطاب مســتقل عمّا سبقه.

ولأننا ســنعود لهذا الحديث الذي ســيطول ، فلابد لنا من توضــيح أمر مهم ، وهو كيف يكون في هذه القناعة أي حل لواقع العرب اليوم؟ الفكرة تتلخص في أن الإســلام نظام حكم أقرب للعَلمانية مما نعتقد ، فلو كان العرب الجزيريين كلهم حملة دعوى معتقدية مثل داعش لما بقي مســيحي واحد في أرض العرب كلها ، بل لما بقي أحد عليها أبدا مهما كان معتقده ، وما دام المسيحي كان يعدُّ مسلما ، واليهودي كان يعدُّ مؤمنا ، والدهريُّ كان يجادل الجميع في الســوق والمســجد وبلاط الحاكم ، والحرب لا تُشــنُّ إلا على الظالم ، أفلا يمكن أن نعيد فهم الإسلام وشرحه على هذه الصورة ، علما بأننا ما نزال رغم ادعائنا أننا دول مواطنة نتصرف كأسوأ الثيوقراطيات!

علما بأن الإســلام _كما ســيأتي لاحقا_ لم يشــرع عقوبة أو حكما قضائيا واحدا لم يكن موجودا في الأصل عند العرب ، وكل الذي فعله هو أنه أخذ من قانون كل جماعة رأيا ، فوحد الناس على عرف/نظام/عقد اجتماعي/إيمان/دين واحد ، مصــنوع من أعرافهم ، وســأحاول أن أبلغ مكانا يكون فيه مقنعا أن نقول: هيا لنتفق على قانون ودستور حديث لدولة

مواطنة عربية متطورة تشـــمل الجميع. ويكون نداؤنا هذا باسـم الإسـلام! مما يجعله نداء جامعا للعرب من كل أصـل وملة ، ويسـهل أحلافهم مع الأمم الأخرى التي قبلت الإسلام ديانة ، فيتحول الإسلام من عقبة في طريق الدولة الحديثة ، كما هو اليوم ، إلى أنزيم مســـاعد على بلوغ الدولة العربية الموحدة القوية العادلة.

قدمت في القســـم الســـابق من المقالة بعض الوقائع التي تَفشل الروايةُ الشائعة عن الإسلام بتفسيرها ، ففهم الإسلام على أنه ديانة ومعتقد يضـــطرنا للالتفاف على التاريخ واللغة للإبقاء على هذا الوهم ، وفي هذا القســـم ســـنأتي إلى بعض هذه الالتواءات ، وبعض النتائج الكارثية لحســـبان الإســـلام ديانة ، لا دولة/دينا/نظاما ، لأننا نريد تمهيد الطريق لقبول الســـردية التي ســـنقدمها لاحقا ، بعد اســـتيفاء هذا القســـم من الكلام حقه.

ســـنضـــع عنوانا فرعيا كتصـــنيف لكل كارثة من الكوارث ، ونتكلم عنها قليلا لننتقل لأختها:

ميتافيزيقية التاريخ

قر في قلوب العرب ، بســـبب حســـبان الإســـلام ديانة ، أن الصـــراعات لا تكون بين الكيانات الســـياســـية ، وإنما بين ديانات ، فلم يحســـنوا قراءة تاريخ حروبهم ، فانتفى أي أمل في مستقبل يكون فيه العربي منتصرا ما دامت الحال على ما هي عليه ، فجيوش الجزيريين الأولى أو الجيوش العربية لم تكن تنتصر في حروبها باللحية والسواك ، وحجاب النساء ، ولا "لأنهم يتقون الله أكثر من ســـواهم" ، بل الأمر كما هو

واضح اليوم، متعلق بأسباب القوة، وليس من بينها الميتافيزيقيا.

لو سألت عربيا قياسيا اليوم عن سبب حروب الفرنجة، لقال لك: إنها حرب على المقدسات. فقد انطلت عليه رواية قادة الحلف الغربي في هذه الحرب، بأنها حروب صليبية، ونسي أن العرب المسيحيين الذين يقدسون الصليب قاتلوا مع إخوانهم، وكلهم مسلمون مؤمنون لبعضهم، جيوش الفرنجة الغازية. يرى عربي اليوم القياسيُّ، أن المغول كانوا ابتلاءً من الله، ولا ينظر لغزوهم على أنه غزو مصلحي، ويظن أن العرب أوقفوا المغول بأن زادوا اعتقادهم، وتمسكهم بطقوسهم، وجاهدوا "لتكون كلمة الله هي العليا"، مع أن هذا لا دخل له في كسب الحروب وأسبابها، وهذا ينسحب على كل غزو، فالغزو الصهيوني اليوم يقع في صنف الفرنجي، والاحتلال التركي كان في صنف الغزو المغولي، ولكن كيف يبصر حقيقة الحرب الواقعية الفيزيقية، من يرى الكون من نظارة الميتافيزيقيا، فكل شيء عنده يفسر بالغيبيات، بالغيبيات وحدها.

وتحت هذا العنوان يقع قبول عامة العرب بأي حاكم يحكمهم، لأنهم يفهمون آية (مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) فهم من يعتقد بصدقية المعنى الذي يلتقطه من الكلام، لا يكيف فهمه للكلام حسب المعنى الممكن، والمعنى هنا بلاغي، وإلا فنحن نتهم الله بأنه هو المذنب في تحكيم الظالم بالمظلومين، ولكن فكرة واحدة كفكرة ميتافيزيقية التاريخ كفيلة بأن

تهدم بنيان أمة كاملة. ومثلها فكرة أن الحاكم مطالب بتطبيق نظام العقوبات الجزيري القديم وإقامة الصلاة ، وهذا كفيل بأن يجعل كل منتقد له خارجيا يحل دمه! كل هذه الأفكار جاءت من البالوعة ذاتها: التاريخ تسيره الغيبيات ، ونحن لسنا إلا دمى! وقد قرت هذه الفكرة في وجدان العربي لدرجة أنه حتى عندما يقل اقتناعه بالديانة ينتقل لنظرية المؤامرة التي يديرها أشخاص غامضون ، ولا يفهم التاريخ على أنه ميدان حركة قوى موضوعية لها حقيقة لا دخل لها بالغيبيات.

الماضي هو الأفضل

بما أن الرسول كان رسول ديانة لا قائدا سياسيا واقعيا ، فكل ما علق بسيرته صحيح ، واجب الاقتداء به ، وهذا لأنه معصوم من الخطأ _مع أن النص القرآني يقول: إنه معصوم من الناس ، لا الخطأ_ ولأنه ثمة قوة غيبية متكفلة بحفظ تعاليم الديانة ، كما يظن المسلم القياسي ، فقد علق في أوهام الناس خرافة القرون المقدسة ، القرون الثلاثة الأولى ، وهي التي تمثل المجد وكل ما سواها لا يصل لها. (أعني حديث: خير القرون قرني ثم الذي يليه ثم الذي يليه). ولحق ذلك ليٌّ أدلة قرآنية لتوافق هذا الزعم ، فباتت كلمة (قليل من الآخرين) تعني زماننا هذا ، ولا تعني من التحقوا بحلف الرسول متأخرين ، وأغلبهم كارهون مكرهون.

مصـــيبة فكرة القرون المقدســـة فعلت الأفاعيل بالعربي ، فجمدت لغته ، ومنعت تطور علومها كما ينبغي ، وأفقدت النصوص التاريخية معناها ، وهي المسئول الأول عن فكرة "عصـــر الاحتجاج" اللغوي ، هذه الفكرة التي جعلتنا دائمي الاصـــطدام بدعاة أصـــالة مزعومة في نظرتهم للغة بنوها على شـــذرات بالغوا في قدرها ، لأنهم لا يملكون غيرها ، ومنعت على العربي دراســـة لغته ، وعاء فكره ، كما ينبغي ، فضـــاق وعاؤه وانحسر فكره.

تفوق الماضـي فكرة مختلة ، ملعونة ، تجعل عربي اليوم يرى الزمن في انحدار مســتمر حتى يأتي ملهم آخر ، اســمه محمد بن عبد الله ، وصـفته من صـفة الرسـول ، هو المهدي الإمام الذي سـيملأ الأرض عدلا قبيل القيامة بقليل ، ويسـحب خط الزمن كما يراه على عهد أبيه وجده ، فيظن أن زمن جده خير من زمنـه ، وهكـذا دواليـك ، فهو معـاد لكـل جـدة ، محـارب لكل تحديث ، متمســـك بكل عادة مهما بلغ تخلفها ، عاجز عن تحكيم الأعراف من خلال صـــلاحيتها للزمن الـذي هو فيه ، مرجعيته تقع في زمن ســـحيق ، كمن يســـتخدم الباع والذراع والقيراط نظاما للقياس فلا يتوقع منه الحديث في الإلكترون والبوزون ، ببســـاطة ســـيعلق في الأنظمة التي تقبلها مسطرته.

وترى العربي اليوم يقلد صـورة ربما رآها في فيلم "الرسـالة" ، للمسـلمين الأوائل ، صـورة بناها مصـمم أزياء الفيلم فيليس دالتون ، وأعمل فيها صـــورته عن العرب التي اســـتقاها من صـــحراء اليوم لا من مكة القديمة ، فبات كل من يطلب

التشبه بكمال الماضي المزعوم ، يستنسخ سمتًا صحراويا ، ويعدّه ممارسة ديانة ، فإذا ارتدى الرجل زي الصحراء وتقعّر في ألفاظه ، وبالغ في السجع الممجوج ، حصل على الأتباع بالجملة ، فهو داعية إسلامي وعلامة ، ولو كان داعية عدوان ، تقفز من فمه ووجهه آيات الغباء والجهل.

النهائية

تتمثل هذه الكارثة في صور عدّة ، أشهرها فكرة أشراط الساعة ، المفتوحة بفعل أحاديث مزيفة أنشئت وقت تدوينها ، على أي فهم بهلواني لأي خرافة ، وأي تخريف في فهم الواقع وتفسيره ، فالعربيّ القياسيّ اليوم يعتنق فكرة نهاية الزمان ، وأن كل ما حدث وسيحدث قد أخبر عنه الرسول أصحابه ، ومع ذلك يفشل في توقّع نتيجة أي حدث يجري ، بل ويفشل في استيعاب النتيجة بعد وضوحها أمام عينيه.

"لا تقوم الساعة حتى..." صيغة ترد في كثير من الأحاديث المزيّفة ، تدفع تابع الديانة الإسلامية إلى قبول أي شيء ، فهو ينتظر كالصهيوني تماما قيام مملكة يهودية ، يحاربها من ضفة شرقية لنهر ما ، نأمل ألا يتغير في فهم اللاحقين لنا ليصبح الفرات بدل نهر الأردن ، بل وكثير ينتظرون أن يحاربوها بالسيف! لأن هذه من أشراط الساعة ، مع أن القرآن يقول: (فهل ينظرون إِلَّا السَّاعة أن تأتيهم بَغْتَةً فقد جاء أشْراطُها).

والنهائية هذه خليط مميت من الجبرية (أي أن الله رسم مسبقا مسيرة التاريخ والإنسان)، والعماء عن الواقع، وتنسحب على سائر الشئون، فإرادة الإنسان العربي المتبع للديانة الإسلامية، مرهونة في رأيه لإرادة الله، مع أن القرآن يعلق كل شيء بإرادة الإنسان وفعله، وهي خليط مميت لأن معتنقها متعلق بالموت لا بالحياة، بالاستخارة لا بالتخطيط، بأن يكون مفعولا به لا فاعلا، بالتيقن من خبر لا بالتفكير فيه وفي الواقع، بالنهاية لا بالبدايات. هذه الفكرة تجعل العربي القياسيّ عاجزا عن قيادة الفعل التاريخي، وعاجزا عن فهم الفعل التاريخي الذي يقوده غيره.

عطب المنطق

أظن أن عليّا بن ابي طالب، وأنا أورده كمثال لأنه شخصية غير خلافية، كان قد سمع ابن عمّه الرسول فقاس كلامه على الحق الذي يعلم فقَبِله، وهذه هي الطريقة الصحيحة للتعامل مع الأفكار، لكن حال المتبع للديانة الإسلامية مختلفة اليوم، فهو يصدّق القول قبل عرضه على عقله، بل وإن عقله يغدو آلة لتبرير الادّعاءات التي لا أساس لها في حسبة المنطق، فيكون عقله وبالا عليه، وأداة في يد من يتلاعب به، لا أداة له كي لا يتلاعب به أحد.

لو بعث اليوم رسول لديانة ما، وقال إن عنده إعجازا علميا في كتابه، فالطريقة التي سيتبعها الناس في قبول دعواه أو ردّها، هي عرض ما يقول على الواقع، لكن ما يحصل اليوم في "عقل" متبع الديانة الإسلامية مختلف، فهو يعرض

الواقع على القول الذي يعتقد بصـــحته ، فإن تخالفا كذّب الواقع دون أدنى مبـالاة ، وهـذه المنهجيـة المغلوطـة في التفكير تمتدّ لســائر شــئونه ، فنحن خســرنا الحرب الفلانية لأن القائد كان خائنا ، أو زوجته كانت غير محجّبة ، فالله ينصــر من ينصــره ، وكأن قائد الجيش المقابل لنا كان يلوك السواك والأدعية ليل نهار!

ما يقوله دعيّ من أدعياء الكهانة الإســلامية اليوم ، يمر عبر الشــقوق في المنطق المعطوب ذاتــه ، فهو لأنــه "مرجع" و"علامة" و"محدّث" و"مفسّــر" فهو يقول الحق ، بينما من يوضـح الخلل في قوله فهو زنديق ، المال الذي يأخذه "بنك إســلاميّ" زيادة على القرض مرابحة حلال ، بينما مثيله مما تأخذه سائر البنوك ربا محرّم ، وينسحب العطب في التفكير على كل شــيء ، فتغدو العقلية العلمية في كل المجالات حلما بعيد المنال.

حســنٌ ، هذه بعض الكوارث العامة في العقلية الإســلامية اليوم ، لكننا سـنخصـص قسـما للحديث عن مصـائب أخرى تتعلق بفهم النصــوص المؤســســة للدين الإســلامي ، منها "عموم اللفظ" و"النـاســخ والمنســوخ" و"حجيـة ســلوك الصـحابة" و"حجيّة سـلوك آل البيت" و"التكفير" و"الحياة في الرموز" ، وهذه تأتي في حديث آخر ، قبيل البدء في سرد فهمنا للدين الإسلامي على أنه دولة ونظام لا ديانة ومعتقد.

في سـياق توضـيح المصـائب التي يجرّها علينا عدّ الإسـلام ديانةً لا نظاما سياسيا ، مررنا في الجزء السابق على الكوارث التي لحقت بالعقلية الإسلامية الشائعة اليوم ، وسنكمل في هذا القسم في السياق ذاته ، موضّحين بعض المصائب التي لحقت بالكيفية التي يقرأ بها أتباع الديانة الإسلامية نصوصهم المرجعية ، وسنكتنفي بذكر الخلل وشرح بسيط عنه ، مع ما يتسع له المجال من الأمثلة عند الضرورة.

تحويل الإسـلام إلى ديانة وتحويل نصـه المرجعي إلى نص مقدّس تقديسا طقسيّا ، ألحق الضرر بفهم المسلمين للنص ، والنصـوص الملحقة به ، وسـنمرّ على ما وعدناكم به تباعا ، دون أن نفقّط الكلام لتداخله الشديد.

تبدأ القصة من قناعة أن القرآن كلام الله الكامل بكمال الله ، غير المخلوق وغير المحدث ، مع أن القرآن يقول عن نفسـه صـراحة: إنه ذكر محدث. وهذه القناعة من متعلقات حسـاب الإسـلام ديانة لا نظاما ، ولأنه عربي فصـيح ، وصـالح لكل زمان ومكان _حسـب قناعة متبعي الديانة الإسـلامية_ وهكذا نشأت فكرة مربكة لكل من أراد أن يفهم القرآن ، وهي أن عموم اللفظ يدل على عموم المعنى ، حتى لو كان سـبب النزول خاصّا: (العبرة بعموم اللفظ لا خصوص السبب).

عند تطبيق هذه القاعدة تظهر في القرآن "تناقضـــات" ، وإنه منذ القدم ، يطعن بعض غير المعتنقين للإســـلام بالقرآن ، مســـتغلين بعض التناقضـــات الظاهرية الموجودة فيه ، وقد انتبه لتلك التناقضـــات كهنة الديانة الإســـلامية ، فابتدعوا فكرة النســـخ ، واتخذوا آية (ما ننســـخ من آية أو ننســـها نأت بخير منها أو مثلها..) معينا لهم على هذا الاستسهال ، فباتت بعض الآيات التي يسمونها منسوخة حكما مثبتة نصا ، كلاما لا فائدة منه ، فالآيات التي نســـختها هي الفاعلة ، ناهيك عن الآيات الأخرى التي أزيلت من القرآن حســـب زعمهم ، أي نسخت نصا ، فطعنت بفكرة أخرى مركزية في طرحهم وهي أن القرآن محفوظ من التحريف.

لنلاحظ أن فكرة النسخ تطعن في صلاحية القرآن لكل زمان ومكان ، وتطعن في كونه محفوظا من النقص والزيادة ، ولا أبتغي هنا أن أثبت أيا من هاتين الفكرتين اللتين أجدهما ترقيعا لخلل آخر في الفهم ، ولكن هذه الملاحظة غرضـــها عرض حقيقة أنهم أرادوا حل التناقض فاطالوا حباله وأخفوه تحت ركام القواعد التي ابتدعوها.

وإنه ليكفي أن ينظر القارئ في ســـياق آية النســـخ ، بل وآية حفظ الذكر ، ليعلم أن القرآن يتحدث عن علاقته بالكتب التي ســـبقته ، وأنه يريد الهيمنة عليها ، ويتعهد بأن القرآن مماثل لها أو خير منها ، وذلك لكســـب آهل الكتب الســـابقة

إلى صـــفه ، فأهل الذكر هم أهل الكتاب ، والذكر المتعهد بحفظه هو الحق الذي يقول القرآن: إنه أعاده لجادة الصواب بعد أن انحرف. والآيات المنســـوخة والمنســـية هي الكتب السابقة. تخيّل أن المسألة بهذه البساطة! تحقق من سياق الآيات لو سمحت.

أما التناقض الذي دفع الإسـلاميين إلى هذه الأفكار المتأخرة عهدا ، فهو له حلّ آخر ، فالقرآن كان وليد ظرفه التاريخيّ ، فقد نزل في حوادث محددة ، وتحدث فيها ، وردّ على الأفكار التي كانت تتداول في حينها ، ولذلك فقد غيّر من أحكامه بتغيّر الظرف ، لأنه كتاب ســـياســـة لا كتاب معتقد ديني ، والســـياســـة حالها التبدّل والتغيّر ، وليس الثبات على حكم واحد ، وهذا لا يسيء للقرآن أبدا ، بل يعلي من شأن التعاطي معه.

الواقع المتبدّل المتحوّل والمحتاج للأحكام المتجددة قال كلمته ، واضـطر الصـحابة إلى مخالفة بعض الأحكام القرآنية تبعا للمصلحة ، وهكذا انقسمت الفرق الإسلامية ، فمنها من قدح في نية الصحابة من أهل الأمر والحل والعقد السياسي ، ومنهم من قدّســـه وعدّ أفعاله وأقواله ملحقا من ملحقات ســـلوك الرســـول ، فخرج بفكرة "حُجيّة إجماع الصـــحابة" ، والقســـم الأول ممن أنكر ذلك على الصـــحابة ، احتج بعدم تحقق الإجماع أصـــلا ، ولكنه لما احتاج هو إلى فقه متجدد

وقـانون متغير بتغير الواقع ، خرج بفكرة موازيـة لهـا وهي "حُجيّة آل البيت" فوجد حلا خاصا به للمعضلة.

ومن باب التمثيل قبل أن نتابع ، نذكر قضية العول والعود ، وهي خلل في حساب المواريث الإسلامية ، التي شرعها قاض عربي توفي قبل بعثة محمد ، اصــطدم به عمر بن الخطاب ، وحلّه له عليّ بن أبي طالب ، وبمجرد إدراك الباحث لهذه القضــية وتبعاتها ، يجد نفســه أمام خيارات يضــيقها أن عمر وعلي اتفقا عليها ، وكل منهم رمز عند فرقة أو أكثر ، فإما أن يقتنع بعدم صلاحية القرآن لكل مكان وزمان ، أو أن يرى أن الوحي الإلهي اســتمر بعد موت النبي وتوقف نزول القرآن ، من خلال إجماع الصحابة أو كلام آل البيت ، أو ـــوهو الحل الوحيد برأيي ـــ أن يقتنع أن الإسـلام نظام سـياسـي ، وليس دعوة ديانة.

المشــكلة قائمة لا يحلها تجاهلها بادعاء الكمال والهروب إلى الإنكار ، وهي ولّدت بدورها مشــكلات أخرى ، فبدأ بعض "الشــيوخ" الهروب إلى فكرة عجيبـة ، وهي أن فهم القرآن ممتنع على الناس ، وهكذا فهم كمترجمين للقرآن يحتاجهم المجتمع لأنهم لن يفهموا القرآن كما هو ، وبـذلـك حـافظوا على وجودهم ومكتسـباتهم من عامة المسـلمين الذين بات أغلبهم من أتباع الديانة الإســلامية الناشــئة ، ولأن التفكير عمل فردي ، وأثره ضـئيل بين الجماعة الراسـخة ، التي بات الملك الظالم معتمدا عليها لترسيخ حكمه ، اصطدم كل من

قال قولا مخالفا لقول هذه الطبقة الكهنوتية ، بعقبات عدّة ، أولها الكهنة ذاتهم ، ثم الجموع التي تتبعهم ، ثم وليّ الأمر الذي يحرص على صورته عند الجموع حاميا لحياض الإسلام الديانة والنظام ، فقُتل من قُتل وأُبعِد من أبعِد ، وأُسكت من أُسكت ، وتراجع عن قوله من تراجع ، وقليل منهم احتال ليوصل لنا التاريخ الآخر الذي يكتبه الضعفاء بالتشفير والالتفاف على عقول معاصريه.

التكفير والتفسيق كانا من أسلحة الطبقة الكهنوتية ضد كل من يهدد مصالحهم ، وفكرة التكفير بحد ذاتها عجيبة ، فالكفر كما أسلفنا في موضع سابق هو الطغيان ، والكافر هو من خرج على الجماعة يحاربها أو يمتنع عن أداء عقد الإيمان بينه وبينها ، وهو مصطلح سياسي ، ليس له أيّ علاقة بالمعتقد ، فقد استعرضنا كفّارا ذوي معتقد موافق للديانة الإسلامية ، واستعرضنا مؤمنين ذوي معتقد مخالف لها ، لكن تحول الإسلام إلى ديانة فرغ هذه المصطلحات من معناها وسحبها لسياق يخص المعتقد ، وملأها بمعنى آخر يناسب ذلك السياق ، وما ترى سبب ذلك ؟ ببساطة شرعنة إباحة الدماء ، فكل من يخالف المستفيدين من الوضع القائم ، من ساسة أو من طبقة كهنة ، وصفة التخلص منه سهلة: يصمونه بالكفر ويقتلونه أو يتركونه لجهلة العامة ليلقى حتفه على أيديهم ، وإذا كان عظيم المكر فهو سيتحدث في منطقة رمادية وهنا ففهم العامة له ممتنع ،

وأثره ضئيل ، لاسيما وهو يحمل وصمة الكفر على جبينه فلا يلقى أذنا مصغية من الأصل.

جبن الإســـلامي عن أن يواجه حقائق بمثل هذا الحجم ، يجعله يلتحق بمرجعية ما ، يكون كلامها هو الحق المطلق عنده ، ولو كان هذربة خالصة لا يشوبها معنى ذو فائدة ، ثم يقرأ القرآن للتعبّد ، مردّدا أصواته دون الوقوف على معانيه ، ولأنه يضـــع المعنى الذي يدعيه الكاهن فوق فهمه ، فهو يحطم وعاء فكره ، لغته ، ليقبل هذه المعاني المختلقة ، فإن كان هو بذاته فقيها فأمامه الخوف من المؤسسة الكبيرة التي تستطيع شطبه بفتوى واحدة ، وإن كان عاميّا فهو سيخاف من الفقهاء والعامة.

أســـمّي الحالة التي أشـــير إليها هنا ، من تحطيم للغة كوعاء للفكر ، وتحويلها لأصوات تردد بمعزل عن معناها الحقيقي ، مفترضين لها معنى آخر ، اسما غريبا هو: الهتملة ، والهتملة هي الصوت غير المبين ، وهي كلمة بائدة أعدت استخراجها من المعجم لألصـــقها بهذه الحالة ، من إفقاد النص معناه لصـــالح معنى ســـابق على القراءة ، وكلما زاد الترديد اختفى المعنى أكثر تحته ، وازدادت القناعة بالمعنى المزيف المفروض قسرا.

نأخذ البســـلمة مثلا ، فهي تقال اليوم للتبرّك بذكر الله ، في بداية كل نص أو حديث ، كرمز ديني يدل على ملّة المتحدث ومذهبه ، فنســـمع خطباء الجمعة يفتتحون بها ، يتبعونها بكل ما من شـأنه توضـيح مذهبهم ، مثل الصـلاة على النبي وآل بيته ، أو زيادة الصـلاة لتمتد إلى صـحابته ، وهكذا فهم يقولونها رمزا ، لتوضـــيح انتماءاتهم. ولكن هل معناها قبل الهتملة هو معناها هذا ذاته ؟ لا ، في الحقيقة البســـلمة ، هي كأن تقول باسم الشعب ، أو باسم السلطان ، وإنك لن تلقى سوى السخط لو تحدثت باسم أحد بما لم يقله هو ، والأصل في النصـوص الدينية الافتتاح بالحمدلة ، حتى أن بسـم الله الرحمن الرحيم التي تراهـا على المصـــحف هي من عمـل الخطـاطين ، ولم ترد كـآيـة في القرآن إلا مرتين ، في مفتتح كتاب سليمان إلى سبأ ، فتحدث النبي باسم الله ، وفي مفتتح كتاب محمد إلى العرب ، فتحدث النبي باســـم الله ، وبغض النظر إذا كنت مصـــدقا أن هذا الكلام فعلا هو من عند الله ، إلا أن المعنى المقصـــود من البســـملة ، يبدو هكذا _وهكذا فقط_ متسـقا مع لفظها ، واسـتخدامها في النصـوص العربية القديمة ، لكن مع كثرة الترديد اختفى المعنى وأصـبح الكلام مجرد رمز لمعنى آخر.

ســـيطرة الرموز على من يعتنقون الإســـلام ديانـة ، تجعلهم يعيشون حياة موازية في الرمز ، بعيدا عن الواقع ، بعيدا عن المعنى ، وهـذا الرمز هو معنـاهم الوحيـد ، فهم ينزعون كـل انتماء جماعي ممكن ، لصـالح انتمائهم للرمز ، ولسـت معنيا

بتفصـيل الحديث حول الرمز في كونه يمتدّ في النشـأة من العائلة إلى العشـيرة إلى المذهب أو الملّة ، ولكن يجدر ذكر أن هذا أسـس لعقلية ترميزية ، تسـهل السـطيرة على الجموع من خلال الرموز ، فحتى الدولة القطرية التي يفترض بها أن تكون عَلمانية معنية بالعالم المشـهود بعيدا عن الغيبيات ، باتت تسـتغل حياة الجماعة في الرمز ، لتمرر أي هراء تريد ، فثمة القائد الرمز ، الذي لا يسـأل عمّا يفعل ، وثمة القطر الرمز الذي تفقد الجموع صـوابها لو نقده أحد من خارجه ، وثمة "الشـيخ" الرمز ، والمرجع الرمز ، بل وحتى الشـاعر الرمز ، وكل هذا مما يتعامل معه الفرد في الجماعة كرمز لا يمسّ ، معناه مسـتقلّ عن أفعاله ونتائج وجوده ، وهذا المعنى موجود فينا لا فيه.

وقبل أن ننتقل لقسـم آخر ، لابد أن أوضّـح أنني لسـت ضـد الرموز كلها ، ولكنني لا أقبـل رمزا لا يعبّر عن حقيقـة ، عن مصلحة جماعية حقيقية ، فإن وُجدت فليكن الرمز ، ولنرفعه عاليا ونقاتل عنه ، بصفته رايتنا ، رايتنا المعبرة عن وجودنا ، فنحن نتوصـل به لوجودنا لا أن نسـحق وجودنا من أجله! بل من أجل معناه المتوهّم.

مررنا على آثار مدمّرة لحسـاب الإسـلام على أنه ديانة ، على مستوى فردي وجماعي ، في العقل ذاته وفي علاقته بالنص ، الذي رفع كرمز للجماعة السياسية ، التي سنأتي إلى التأسيس

لفهمها ، وفهم الرسالة المحمديّة ضمنها. وما زال أمامنا شوط في قسم آخر.

قبل الخوض في هذا الجزء ، فلنتذكر ما بتنا نقف عليه حتى اللحظة ، عرفنا من الجزء الأول معنى مصطلح الدين العربي ، وقرّ عندنا أنه النظام السياسي الذي انتهجته الأمة الواحدة _غير الموحدة ولو مرة في تاريخها الطويل_مدة من الزمن ، وهو الإسلام ، النظام لا الديانة ، ثم تناولنا في الجزء الثاني ضرورة هذا المبحث ، ولماذا علينا أن نطور نظامنا بما يتناسب وشروط العصر ، وفي الجزء الثالث حاولنا استعراض بعض ما يمنعنا من قبول الفهم القائل بكون الإسلام ديانة لا نظاما ، وفي الجزئين الرابع والخامس شرحنا بعض الكوارث الواقعة على العقل العربي بسبب فكرة التعامل مع الإسلام كديانة ، وهذا شمل العقل ، وتعامل العقل مع النص.

في هذا الجزء سنعرض للأمر المحوري ، وهو فهم الإسلام كنظام سياسي أي بالمصطلح العربي القديم: دين ، لا ديانة ومعتقد ، ولكني ارتأيت أن أستعرض المشكلات التي تواجه هذا الطرح كوسيلة لتوضيحه ، أي أننا سنوضح الطرح بدايةً من خلال اجتياز العقبات التي تواجهه ، وتحليل المشكلات والرد عليها ، وهذا بسبب طبيعة المبحث الشائكة ، سنبدأ بالمشكلة كعنوان ، ثم يلي ذلك توضيح المشكلة ، ومن ثم كيف نجتاز هذه المشكلة ، أو العقبة في طريق طرحنا.

الطعن في نبوّة محمد

القارئ لهذا الطرح يخطر له أننا نطعن في نبوّة محمد ، لأننا إذ ننظر لرسالته كسياسة لا ديانة ، فنحن ننفي عنه النبوّة ، وهذا يعدّ تقليلا من شأنه ، لاسيما بعد ما وضحه محمد جابر الأنصاري في كتابه (العرب والسياسة: أين الخلل ؟) ، بأن أتباع الديانة الإسلامية ، لاسيما "السنة" منهم يحتقرون الساسة ، ويرون السياسة أقل شأنا من الديانة ، وبهذا فنحن أمام مشكلة مركبة ، وهي ادعاء أننا نلصق وصفا غير محبب بالنبي ، وأننا ننفي النبوة عنه.

ولحل هذه المشكلة ، يجب علينا فهم ماهيّة النبوة ، فهل هي شيء آخر غير السياسة أصلا؟ ألم يطلب كل نبيّ من قومه أن يتّبعوه؟ لاحظوا أن اتّباع النبي يحوّله من فوره لقائد ، فإن لم يتبعه الناس لم يتحوّل لقائد ، يبقى أن نربط القيادة هذه بشئون سياسية ، لا شئون معتقدية ، وهو الحاصل أصلا دون أن نبذل جهدا يذكر ، لاحظ أن كل نبيّ أتى قومه كان يطالبهم بعقد اجتماعي بينهم ، وينهاهم عن سلوك اجتماعيّ محدد ، وكما يقول القصص القرآني فنحن لا نرى قوما أهلكوا إلا بجرم قائم على أرض الواقع ، لا معتقد خاطئ ، فنهي لوط كان عن الفاحشة ، ونهي شعيب كان عن الغش في الموازين ، وهكذا.

الطعن في نسبة القرآن إلى الله.

قولنا: إن القرآن كتاب سياسة لا كتاب معتقد. وكوننا نردّ معانيه لسياقاته الداخلية والخارجية ، أي علاقة الآيات

ببعضها ، وعلاقتها بأسباب نزولها ، فهذا قد يفهمه القارئ على أننا نجعل القرآن من إنشاء محمد ، وهكذا تلقائيا فنحن ننفي أنه كلام الله ، وننفي كماله وأزليته ، وصلاحيته لكل زمان ومكان ، وننفي العبرة فيه بعموم لفظ آياته لا بخصوص سبب نزولها.

ولحل هذه المشكلة علينا توضيح عدة أمور ، نجملها بتوضيح الصورة التي تسيطر على ذهن متبع الديانة الإسلامية ، ونبيّن ردّنا بتوضيح الصورة عندنا.

عند الإسلاميّ القياسيّ (متبع الديانة الإسلامية اليوم) فالله هو كائن خارج كوننا ، له وعي مستقل عن الكون ، يتحدّث العربية ، علمه كامل ، كتب كتابا اسمه القرآن منذ الأزل ، هو صفته لأن الكلام صفة المتكلم ، وهو غير مخلوق ، كامل ليس فيه نقص ، أنزله في ليلة القدر إلى السماء الدنيا ، ثم نقله الملاك الموكّل بالوحي إلى الرسول الكريم ، منجّما حسب الحوادث ، ولأن الله كامل العلم فقد تناسب مع أسباب النزول اللاحقة عليه ، واحتوى أسماء أشخاص كأبي لهب وزيد الذين لم يخلقوا قبل عهد الرسول أصلا ، وهذا القرآن عربيّ فصيح ، آية في الفصاحة ، يسميه الإسلامي "معجزة" ، يراه غير قابل للفهم المباشر ، يعتمد في فهمه على المفسرين ، الذين يرون أن المعنى تعلق بعموم اللفظ ، لا بخصوص المناسبة.

أما الصـــورة عندنا فهي أمر آخر تماما ، فنحن نعتقد بوجود الله ، روح الجمـاعـة ، وعي الكون ، هو رمز وجودنـا ، وأن محمّدا رجل مهتمّ لأمته ، تمتع بروحانية عالية من قبل البعثة ، وتفـاجـأ بنمط غريـب من القول يـأتيـه من وعي منفصـل عن وعيه ، هذا القول هو القرآن ، الذي حمل له في لحظات إلهام إجابات على أســئلته الوجودية والاجتماعية والسياسية ، فقد خلقه الله في وعي محمد ، وهو كلامه بمعنى اجتراحه (معنى كلَم في اللغة هو جرح) ، وهذا الكلام محدث وليس أزليا ، والله قادر على خلق أمثل منه ، فهو حق ولكنه ليس كاملا ، وهو آية وليس معجزة ، يفهمه متحدث العربية حسب شرط العربية في ذلك الحين ، وفهمه مشروط بسياق آياتـه ، فلا يؤخذ كأجزاء متفرقة ، وقد نهى القرآن ذاتـه عن تعضيته (تعضيته تعني تقسيمه إلى أجزاء وفهم الأجزاء على أنها مسـتقلة بمعناها عن الأجزاء التي حولها ، مسـتقلة أيضـا عن ســياق نزولها ، ومن ثم الاحتجاج بها على هذا النحو) فالعبرة ليست بعموم لفظ الآيات أبدا ، وإنما بمعناها الجزئي داخل معناها الكليّ.

الطعن في عالم الغيب.

قد يقع في وعي القارئ أننا بطرحنا هذا ننفي وجود الغيب ، ونكـذّب خبره ، وأننـا نقول بـأن النبي كـان رجلا لا يملـك معتقدا عن عالم الغيب ، فهو بذلك كان يقول ما تمليه عليه الحاجة لكسب الأتباع ، وما تقتضيه مخاطبتهم من الحديث

معهم بعقليتهم، وضمن رموزهم، وهذا يجعله نفعيّا إلى أبعد حدّ، يسعى لمصلحته الشخصية، وهذه وجهة نظر شائعة نخشى أن تختلط بطرحنا.

في الحقيقة نحن لا ننكر أن محمدّا تحدّث في الغيبيات، وكاتب هذه السطور مصدّق بخبر الغيب الذي جاء به محمّد، لكننا نعي أن للتاريخ كلمة يقولها في هذا، وهي أن محمّدا نشأ في بيئة محددة، عندها أساطيرها وطقوسها وأعرافها وصورها عن الغيب، وأن هذه الأساطير والطقوس والأعراف وصور الغيب كانت متعددة، تعدّدَ الديانات السائدة في عصره، وهو قال ما يجعل هذه القصص "الأساطير" (هذا من قص الأثر والخبر، وهذا من التسطير وهي ليست إهانة إطلاقًا) وهذه الطقوس وهذه الصور عن الغيب، أكثرَ اتّساقا وتجانسًا مع بعضها البعض، وهذا يشمل الاتساق الداخليّ لكل أمر من هذه الأمور، داخل الديانات المختلفة، والتجانس بين الناتج المتسق في كل أمر منها مع باقي الأمور، أي أنه وصل إلى قصص متسق يشمل الأساطير العربية كلها، وإلى طقوس مشتركة تشمل الطقوس العربية كلها، وإلى عرف مشترك يشمل الأعراف العربية كلها، وإلى صورة متسقة عن الغيب، تشمل الصور العربية كلها، وأتى بهذه القصص والطقوس والأعراف والصورة عن الغيب، في تجانس متكامل.

ولكنه لم يشترط على الناس التصديق بكل هذا ، بل أباح الاختلاف معه في كل شيء إلا العرف ، فكل ما سواه شأن فرديّ لا يمكن إجبار الإنسان عليه ، ولكنه اشترط أن يكون المرء مسلما ، أي أنه يكفّ أذاه عن غيره ، ومؤمنا أي أنه يؤمن غيره ويأمنه غيره ، وهذا كان للأفراد ، والجماعات ، وهو منع الكفر أي الطغيان على هذه الجماعة المؤمنة ، وحاربه وأشهر ضده السيف ، فكان لدولته حق احتكار العنف ، وأسس قضاءً موحّدًا ، وجيشا موحّدا ، ونادى بوحدة القبائل والشعوب العربية على عرف واحد ، هو الإسلام ، الدين العربي ، الذي هو نظام حكم الأمة الواحدة التي نادى بها ، ونجح جزئيا في تأسيسها ، لكنها لم تنجح في الاستمرار في الوحدة ، وتفرقت واختلفت من بعد ما جاءها الحق من ربّها .

قد يلزم التوضيح للأفكار السابقة ، وقد سبق لي أن نشرت رأيي الذي أعتمد عليه هنا ، في مقالات مطولة سابقة مثل (رحم الجارية | قراءة في مفهوم السنة النبوية) و(قفاز القرآن) و(لنتكلم في الله) ، وهذه المقالات توضح كيف لي أن أزعم ما أزعم ، من قبولي للمعتقد الإسلامي وموافقته ، وأن هذا البناء جاء من داخل الأفكار الإسلامية ، وليس وافدا عليها ، ولو أن تلاقح الأفكار بين الأمم شيء مرغوب ما دام فيه مصلحة للأمة ، ولكن هذه الأفكار كلها من داخل التجربة الفكرية الإسلامية ، أقصد ماهية الله ، وأن القرآن مخلوق ،

وسواها مما أختلف به عمن اصطلحت على تسميته بالإسلاميّ القياسيّ.

هذه كانت أكبر المحاذير التي يتوقّاها كل إسلاميّ الديانة يقرأ هذا الطرح ، مضمومة إلى الردّ على كل منها ، وهذه الردود ستنتظم مع ما سنطرحه لاحقا عن نشأة دين الإسلام ، ومن ثمّ نشأة الديانة الإسلامية داخله ، ثمّ نجمل القول فيما تمليه علينا هذه الأفكار من أفكار أخرى تتسق معها.

نبدأ على بركة الله في توضيح ما نراه ضروريا ، لفهم نشأة الإسلام ، أي الدين العربي ، أو نظام الدولة الذي انتهجته أمتنا الواحدة مدّة من الزمان ، وهذا يشمل السياق التاريخي لنشأة هذا الدين/النظام ، وضرورته التاريخية ، وكيف صعدت الأفكار المؤسسة له ، ولماذا لاقى هذا الصدى العظيم.

ويجب علينا في هذا السياق توضيح فكرة مهمة في قراءة التاريخ ، وهذه تشمل التاريخ كله ، ولكننا سنخصص الحديث حول التاريخ الإسلامي ، وما هو متعلق به ، وهي ما سنصطلح عليه باسم "النموذج المفسّر" ، وهذا النموذج المفسّر يصبح سرديّة تاريخية كفاءتها متعلقة بقدرتها على انتظام الوقائع والحقائق في نظام واحد ، يشترط فيه أن يكون عقلانيا متسقا متجانسا ، غير محصّن من النقد والنقض ، ولكلّ من الأفراد والأمم أن يقدّم سرديته التاريخية التي تلعب دور النموذج المفسر لما يدركه من وقائع وحقائق ، ولا يخفى أن الاختيار بين سرديتين أو أكثر ، ما دامت هذه السرديات تحقق شروط القبول ، هو عمل دافعه المصلحة ، وليس يقينا مطلقا.

إذًا ، فنحن نعترف للقارئ أننا نتساوى مع سوانا ، في كوننا نقدّم نموذجا مفسّرا ، نرى فيه مصلحةً لنا ، لكن هذه المصلحة مصلحة جماعية لا مصلحة فردية ، والأهم أن النماذج المفسرة تتفاوت في تحقيق شروط القبول ، لاسيما تلك الخاصة بعقلانيتها واتساقها وتجانسها ، وفي النهاية العقل هو الحكم.

أما ما نسميه وقائع وحقائق ، فمصدره التاريخ وليس من رتبة الوقائع في تجربة علمية منضبطة ، ولفهم ذلك نتخيل رجلا في عصور ساحقة نقش على لوح حجريّ نصا ما ، وكان هذا النص من بنات أفكاره وشطحات ذهنه ، لا واقع له ، ثم جاء زمن آخر فوجد اللوح إنسانٌ فصدقه ، وعدّه حقيقة تاريخية ، وما ورد فيه من أحداث باتت عنده وقائع تاريخية ، وليس لنا لكشف كذب هذه الوقائع إلا النظر في اللقى الآثارية الأخرى ، وبناء صورة شمولية منها ، فإن تنافرت مع ما نقشه الرجل على اللوح ، وكانت بمجموعها أخلق بالتصديق مما كتب ، وضعنا اللوح جانبا ، وإلا فنحن قد نصدّق الهراء!

وهنا يرفع السؤال: أليس في هذا المنهج مغالطة دور منطقي؟ فالفهم الشمولي للتاريخ مبنيّ على اللقى الوقائع التاريخية ، والوقائع التاريخية تقبل حسب درجة تناسبها مع الفهم الشمولي ، أي السردية معتمدة على ما يقبل على أنه وقائع ، والوقائع معتمدة على السردية.

نعم ، ثمة مصادرة على المطلوب في مكان ما ، ولكنها أفضل ما نملك ، والتاريخ أحيانا يكون أقلّ تعقيدا من الحالة التي تخيلناها ، فكما ننزع لتخليد ذكرنا في التاريخ ، نزعت أمم قبلنا هذه النزعة ، وتركت لنا رواياتها للأحداث ، ولنا أن نضرب القول بالقول لنتلمس طريقنا ، ومرجعنا الأساسي هو تحكيم العقل والمنطق ، فإذا تساوت الأمور من هذا المنظور ، عمدنا لما فيه مصلحتنا ، دون أن ننكر أن قراءة التاريخ يعتورها ما يعتورها من عيوب ، وأن كل كلام فيها معرض للنقد والنقض ، وما كان من هذه السرديات مغلقا على نفسه ، لا يحمل بذور تجاوزه فيه ، فهو خليق بالتكذيب ابتداءً.

مصادرنا لبناء السردية الآتية متنوعة ، أهمها المصادر الإسلامية ، وعمل جواد علي الموسوعي (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) ، وعمل النويريّ الموسوعيّ (نهاية الأرب) ، وما اتصل لنا من تاريخ الحواضر العربية القديمة في الشام والعراق ومصر وليبيا ، عن طريق روايات المؤرخين المعتمدة على اللقى الآثارية ، والرقم والأوابد ، وأعمال المستشرق الذي غاص في تاريخ العرب ، أرنولد تويمبي ، ولابدّ من ذكر من حاولوا ملأ الفراغات ، مثل أحمد الداود ، وخزعل الماجدي ، وزكريا محمد ، ونحن نعلم تفاوت جودة أعمال المذكورين وتنوع مناهجهم ، وتضارب أقوالهم أحيانا ، مع حفظ الألقاب لهم جميعًا.

سنبدأ بسرد طرحنا ، نموذجنا المفسّر ، محاولين الاقتضاب قدر الإمكان ، والتاريخ محلّ الإســهاب ، لكننا ننوي فقط اقتراح فهم يشــمل وقائع متعددة دون الغوص في الوقائع وكيف يفسّرها هذا الفهم ، تاركين التفصيل لسلسلة مقالات أخرى ، منها ما ســبق كتابته ، ومنها ما يأتي لاحقا ، والاقتضــاب له ســبب محدد ، وهو أننا في محلّ إجمال ، وتقديم تصوّر شمولي.

نقلت لنا كتب التاريخ العربي وجود بشــارات عديدة ، ببعثة محمّد ، المحمدان ، وتتقاطع هذه البشــارات مع فكرة انتظار المخلصّ عند العشــائر العربية اليهودية ، أو عودته عند العشــائر والحواضــر العربية المســيحية ، وأصــداء هذه البشــارات بقيت كمعتقدات شــعبية عند الإســلاميين ، من مظاهرها انتظار المهدي ، حتى أنه ســبق للعرب أن أطلقوا اسم محمد على ستة رجال سبقوا الرسول ، لم يدّع أحد منهم الرسالة. أي أنه كان ثمة ميل شعبي يتجلى في هذه الأساطير عند العرب ، بوجود عصــر يتّحدون فيه ، ويؤســســون فيه دولة\ملكا\دينا\نظاما ، وســبقت محاولات لتأســيس هذا الملك ، مثل محاولة كليب وائل ، لكن هذه المحاولات فشلت كلها ، إلى أن جاء محمد.

كانت الأديان المنتشــرة في الجزيرة العربية ، لاســيما مكة ، نسخًا مختلفة قليلا أو كثيرا ، عن عقيدة الخصب ، الديانات

الأوزيريسية ، التي نجدها في وادي النيل ، ووادي النهرين ، والشام ، وحتى شمال إفريقيا ، وكان ثمة خليط مركب من المعتقدات ، وهذا الخليط متصل بتاريخ المنطقة ، وبأديان مختلفة كالصابئة ، والمسيحية ، والزرادشتية ، واليهودية ، ولكن عرب الجزيرة كان لهم ظروفهم الخاصة ، التي تتلخص بالطبيعة البدوية ، فوجود مصدر واحد لرزقهم حداهم بالقول بوجود ربّ واحد يسمونه الله ، يسكن السماء محلّ رزقهم(لأن المطر ينزل من السماء) ، واحترابهم جعلهم يتخذون رموزا من أصنام\ آلهة ، تتخذ كل قبيلة صنما يكون رمزا لها.

الراجح أن اسم الميلاد للرسول محمد ، هو قُثَم ، وبعض كتب الحديث تقول به ، وأن محمدًا لقب كما أن موسى لقب ، وعيسى لقب ، وكل الأسماء الواردة في القرآن ألقاب ، ولو كان اسم ميلاده محمد فهذا قد يجعل العرب من غير بني هاشم يشكون بوجود مؤامرة هاشمية مسبقة ، لأن يكون منهم نبي. وكما وصل لنا فإن مكة بكونها باتت مركزا تجاريا تعارف أهلها على منطقة لا قتال فيها ، هي منطقة السوق ، الحرم ، وأشهر لا قتال فيها ولا صيد ، وهي الأشهر الحُرُم ، وقد سبق البعثة أحلاف بين القبائل كان لها طقوس ، والحِلْف من الحَلف وهو القسم ، كأحلاف الجاهلية الرئيسة الأربعة ، وفيها يقسم المتعاهدون عن قبائلهم أيمانا مغلظة ، ويقومون بطقس كغمس اليد في الطيب أو لعق الدم ، وكانت الأحلاف في اتساع ، حتى بلغت حلف الفضول ، ومعاهدة

الإيلاف ، ولها ترجمة على شكل ملل الحمس والطلس والحلة ، ثم جاء محمد مناديا بوحدة القبائل ووحدة الآلهة.

ولوحدة هذه القبائل يلزم توحيد العرف ، وتوحيد الطقوس ، وتقديم رواية مهيمنة لقصص الأقدمين ، وتقديم معتقد يعضد هذا كله ، هذا كله مما يرويه الناس دون تحرج ، فهو عند الباحثين تاريخ ، وعند الإسلاميين تهيئة الله الظروفَ المناسبة لانتشار الرسالة ، فأما ما تقاطع من الرسالة المحمدية مع أساطير الأولين ، فهو يقول: إنها بقايا رسالات سابقة شوّهت وحرّفت ، ثم تشابهت مع خبر السماء. وغير الإسلاميّ يقول: بل إن محمّدا تعلّم هذه الأساطير ، وخرج بأسطورة أخرى مهيمنة عليها ، لمطمح سياسي. ولكلٍّ منهم أن يقول ما يريد.

لكن ثمة ما لا يقبل الاختلاف فيه بهذا التسامح ، وهو أن القرآن سواء كان من عند محمد أو من عند الله ، فهو حرّم قتل النفس بكونها نفسا ، وترك للناس حرية المعتقد ، وأجّل البتّ في الخصام حول خبرالغيب إلى حياة آخرى ، طلب إلى الناس بالعربية الأكثر شيوعا ، أن يسلموا وأن يؤمنوا ، وأن يدخلوا في السلم كافة ، وسوى ذلك مما لا يتفق مع كون الإسلام معتقدا.

هنا لنا أن نبدأ دعوانا بفهم أن الإسلام كان حلفا ، لحقه فيما بعد حلف الإيمان ، وهو الامتداد الطبيعي لأحلاف مكة ، بعيد الإيلاف ، وأن نجاح محمد كان متعلقا بعدة عوامل:

• الانتصار في مجال الممارسات الطقسية. فأثبت طقوسا مختلفة لأحلاف مختلفة ، هي الآن مجموع شعائر الديانة الإسلامية.

• الانتصار في مجال الأعراف والقضاء. فأثبت أجزاء مختلفة من أعراف الأحلاف ، هي الآن مجموع شرائع الديانة الإسلامية.

• الانتصار في مجال الأخلاق والعقلانية. فقدّم خطابا عقلانيا جامعا ، وسمح بالاختلاف معه ، وعُرف بالصفات الحميدة عند قومه ، هي الآن الأخلاق التي تدعو لها الديانة الإسلامية.

• الانتصار في مجال الأسطورة وصورة الغيب ، فقدّم رواية لقصص الأقدمين بما يخدم صورة غيبية محددة ، هي في صالح طرحه السياسي ، لأن نزع الانتماءات الضيقة للعشيرة والحلف يلزمه تحطيم منظومة الأصنام.

• الانتصار في مجال الأحلاف العسكرية. فسافر بين القبائل يبحث عمن ينصره هو وجماعته من قريش ، حتى وجد ضالته في يثرب ، المدينة.

• الانتصار في مجال الاقتصاد والتجارة. فقطع طريق تجارة المكيّين وغزا قوافلهم ، على طريقهم الأكثر حيويّة إلى الشام.

• الانتصار من ناحية تنظيم شئون دولته. وهذا كان مفصلا حرجا ، فما قام به ، أو بالأحرى ما لم يقم به ، فتح الطريق للاختلاف من بعده ، إما لأنه أراده حكما شوريّا كما يقول الإسلاميّ ، وشرّع جمع الناس في يوم عروبة (اسم يوم

الجمعة القديم)، ليتباحثوا في أمرهم، أو لأنه لم يرزق بولد يرث ملكه كما يقول بعض من لا يصدقون بالمعتقد الإسلاميّ. الأمر أنه لم يضع تشريعا ملزما خاصا بهذا، فهو توفي قبل أن تتوسع دولته، ولم تؤسس الدولة إلا في عهد عمر، وتأخر رسوخ أركانها حتى جاء ملك الأمويين الوراثيّ.

وفعل هذه العوامل على الأرض، يمكن تتبعه بسهولة للعارف بتاريخ البعثة، وقد استمرّت هذه السلوكات بعد موت الرسول، فاستمرّ التشريع وكسب الأحلاف عن طريق تأليف القلوب بالمال المتحصل من الزكاة، ثم تغيّرت المعادلة في عهد عمر، فغيّر التشريع، وعطّل بعض الحدود عند الضرورة، واستمرّ التعديل على الطقوس، فباتت التراويح تقام جماعة، واستمرّ نحت العرف ومنه قضاء عليّ في مسألة العول والعود، وبنى المسلمون جيشا احترافيا، وهكذا...

وفي سياق متصل، سيكون موضوعَنا في الجزء القادم، استمرّت بلورة التصور الإسلاميّ عن الغيب أثناء مقارعة التصورات في الحواضر العربية، في ما عرف بعلم الكلام، وبدأت منظومة الفقه تتأسس، ولحقها التفسير والحديث، وغير هذا مما أسس لنشأة الديانة الإسلامية، وهو الموضوع الذي سنخوض فيه لاحقا.

نتابع حديثنا من المكان الذي انتهينا إليه ، قد اســتمر بناء التصـور الإسـلامي عن الغيب ، كما اسـتمر بناء الإسـلام كله كنظام والتعديل عليه ، وهذا امتد من عهد الصــحابة إلى نقطة بعيدة في الزمن ، وســنقف على بعض أهم مفاصــل جمود استمرار هذا الأيض (الأيض هي عمليات البناء والهدم) المعرفي والتنظيمي الإسلامي عند جماعة المسلمين ، خلال مقالتنا هذه ، ولا ننسى أن هذا القسم مخصص لنشوء الديانة الإسلامية.

دعونا قبل أن نشرع في الحديث عما حدث في تلك العصور ، استعادة أمر مهم متعلق بشروط الحياة فيها ، فالناس آنذاك كانوا أبســط مما نتخيل ، ولا وجود لثورة الاتصــال الفائقة الحادثة اليوم ، وحتى القراءة والكتابة كانت محدودة جدا ، ولا وجود لاختراع الطباعة والنشر ، والذي ، بالمناسبة ، تأخر عند العرب بســبب الاحتلال التركي لمدة أربعمئة عام ، عن بقية العالم ، ولذلك فنحن لا نتحدث عن سياق واحد لتطور الإسلام ، ونشأة الديانة الإسلامية ، بل عن سياقات مختلفة في كل إقليم وحاضــرة من حواضــر العرب ، فهذه المباحث كانت شــأن خاصــة الخاصــة ، ولم تكن شــأنا عاما كما هي اليوم ، وكان المشـتغلون بها يمثلون ضـربا من الإنتلجنسـيا العربية ، وكان اتصال أعضاء هذه الطبقة بين الحواضر أقل من اتصــال العامة ، والســاســة ، بحكم أن للعامة تجارتها

وأعمالها ، وللساسة تواصلهم وأحلافهم وما يمكن أن نسميه خطوط اتصال بينية ساخنة.

ونحن إذا كنا نتحدث عن سياقات لتطور الديانة وليس سياقا واحدا ، فليس في وسعنا الخوض في تطور كل مذهب وفرقة على حدة ، ولكن نشير للقارئ الكريم بسلسلة صدرت عن العقلانيين العرب ، تناولت سياق تبلور كل صورة من صور الإسلام ، من إصداراتها: الإسلام الأسود ، إسلام المتصوفة ، وهكذا... لكننا نخوض في صورة إجمالية عن الأطوار التي نحسبها مشتركة عند هذه النسخ المختلفة من الديانة الإسلامية كلها.

سبق وجود أغلب الحواضر على وصول دعوة الإسلام لها ، وفي كل حاضرة كان ثمة ثقافة راسخة ، وهذه الثقافة موجودة بكل عناصرها ، وهذه تشغل الحيز ذاته الذي أراد الإسلام أن يشغله ، وحدث التدافع بين الإسلام وبينها ، ووصل أهل كل مصر من الأمصار إلى صورة خاصة بهم من الإسلام نتجت عن هذا التدافع ، وهذه الصورة تشمل كل عناصر الإسلام التي ناقشناها في الفصل السابق ، ولكن أكبر الاختلافات وأكثرها رسوخا هي اختلافات المعتقد.

العرب الذين أنجزوا فروض تحرير أرضهم ، لم ينجزوا فرض الوحدة ، فكان ثمة انقسام سياسي ، بدأ منذ عهد الصحابة ،

واستمر وتشعب في العهود اللاحقة ، وقد انتبه الساسة إلى دور المعتقد في تسيير المجاميع ، وسياسة الناس ، واستغلوا المعتقدات سياسيا أكبر استغلال ، ومن الأمثلة على ذلك تحويل مدينة إيليا إلى بيت المقدس ، في عهد خسارة السيطرة على مكة ، وتحويل تركيز الناس من القرآن إلى المرويات الحديثية ، أو إلى كلام ذرية أهل البيت ، أو إلى تعاليم رؤوس الصوفية.

بقي القرآن رمز وحدة المنتمين للإسلام كمعتقد ، ولكن مرونته الهائلة كنص بلاغي ، سمحت للناس بتحريك فهمه ، والذين نادوا به وبالعقل مرجعين وحيدين ، وهم المعتزلة كانوا من أوائل الفرق العقدية والفقهية نشأة ، وهؤلاء هم من نادى بالتعامل مع القرآن كنص عربي ، يفهم في حدود زمانه ومكانه ، أي بالشروط العقلانية للتعامل معه ، وجدالاتهم مع أهل المعتقدات المختلفة هي حجر الأساس في بناء الديانة الإسلامية ، أو التصور الإسلامي الشائع اليوم عن الغيب ، وإن كان هذا الحجر مغطى بمئات الحجارة من فوقه مما لا يشبهه.

لنتذكر أن جزءًا كبيرا من أهل الإسلام كانوا من النساطرة المسيحيين ، وجزءًا آخر كانوا من اليهود العرب ، والكثير الكثير من أهل الملل ، وبما أن الإسلام كنظام أو دين كان معتمدا على القرآن كنص مرجعي يمثل العقد الاجتماعي بينهم ، فقد انشغلت طبقة الفقهاء من أهل الملل به ، وبالرد

عليه ، وبترسيخ ثقافتهم من خلال إلصاقها به ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك وزير المالية عند معاوية ، القس الفيلسوف يوحنا الدمشقي ، الذي يُرجع له كثير من الباحثين نشأة منظومة الأحاديث النبوية ، والراجح أنه أول من فتق سؤال خلق القرآن ، بدافع ترسيخ أن المسيح بكونه كلمة الله فهو صفته ، أو أن القرآن غير كامل بكونه مخلوقا محدثا ، وهو في الإجابتين يحفظ وجود ديانته على الأرض.

ولابد من الوقوف على أمر مهم ، قبل المتابعة في هذا السياق ، وهو أن الحضارات تنشأ وتقوم بسبب المشروعات الكبرى ، التي يتحلق حولها الناس ، وقد كان مشروع التوحيد والتحرير هو مشروع الحضارة في وقت الرسول ، تحرير الإنسان وتوحيد الله رمزا للجماعة المؤمنة ، أي توحيد الأوطان ، ولكن ساسة أهل الإسلام المتفرقين والمنشغلين في حروب استعمارية (فتوحات) خارج حدود الأرض العربية ، احتاجوا لمشروعات كبرى ، ولم يكن ثمة خيار أفضل من تحويل الإسلام إلى ديانة ، أسوة بالحضارات الأخرى التي غزتهم من خلال توظيف الديانة والمعتقد.

صناعة هذا المعتقد ، أو المعتقدات ، تأثرت إذًا أكبر تأثر بالسياسة ، والممالك أيضا كانت محدودة بحدود جغرافيتها ، ومحكومة للحاضرة المركز فيها ، وديانتها الإسلامية متأثرة بالثقافة السابقة على الإسلام في تلك الحاضرة ، وما دمنا نتحدث عن الديانة الإسلامية الشائعة اليوم ، فلنا أن نحدد

أهم المفاصل التي شكلتها ، شارحين كل مفصل بأشد اقتضاب ، كي لا تتحول المقالة إلى كتاب.

الفتنة الكبرى. وهي الصراع على السلطة بين الهاشميين والأمويين ، وهم سادة مكة وكل منهم كان له حلف مستقل قبل الإسلام ، ولهذا الحلف طقوسه وعاداته ، التي عند تداخلها مع نظام الإسلام أنتجت منظومة تحليل وتحريم مختلفة ، في حدود ما يسمح به القرآن من اختلاف ، ولجوء الأمويين إلى منظومة الأحاديث كنص مرجعي ، ولجوء الهاشميين إلى تقديس آل البيت والقول باستمرار بقية النبوة فيهم ، بصورة أو بأخرى ، مضافا إلى الحروب المتعددة المبنية على هذه الفتنة ، واختلاف الحواضر بتأثرها بإحدى الفرقتين ، وتعقيدات الحكم ، كل هذا لعب دورا في صناعة الديانة ، قلنا ديانة ولم نقل ديانات ، لأن الطرفين كليهما كان يسعى للسيادة على الأمصار كلها ، فلم يصل به الأمر أن يحاول الاستقلال بديانة جديدة كليا.

ومثاله انقسام المسلمين إلى قسمين رئيسين هما الأمويين والعلويين ، أو بأسماء اليوم السنة والشيعة.

توسع رقعة الإسلام عن حدود العرب الجزيريين. فدخول الحواضر العربية في الإسلام كنظام ، استدخل صورهم عن الغيب ، إلى الديانة الإسلامية ، ولهذا تتشابه الديانة

الإسلامية أيما تشابه مع ديانات المنطقة القديمة ، حتى تلك التي لم يكن الرسـول قد احتك بها ، وهذا جاء بطريقين ، إحداهما قبل البعثة من خلال الديانات الأوزيريسـية ، والأخرى بعد سـيطرة الدولة الإسـلامية العربية ، بحكامها الجزيريين على تلك الأمصار.

ومثاله مسـألة خلق القرآن ، وهل هو مخلوق محدود ، أم صفة الله غير المحدودة ؟

توسـع رقعة الإسـلام عن حدود الدعوة المحمدية. فممالك العرب المتعددة دخلت أرض أقوام آخرين ، بيننا وبينهم حواجز جغرافية معتبرة ، تمنع الهجرات الكبيرة ، ولا تشترك بصفات أرض الأمة الواحدة التي ناقشناها في جزء سابق ، وهذا عنى تحول القرآن إلى نص يتبرك به ، وكان مجال النقاش في المعتقدات هو علم الكلام والمنطق ، وهذا النقاش بلغ الأفكار المؤسسة للديانة ، ورسخها ، ولم يكن النقاش مبنيا على القرآن ، أو على القرآن وحده على الأقل ، وكان لهؤلاء الأقوام دور مركزي في إدارة الدولة/الدين ، فاستغلوا الأفكار التي حكموا بها ، وهي صنعت لاكتساب ولائهم ، بأن باتوا هم الحاكمين ، لاسيما وهم كانوا قوة عسكرية لا يستهان بها.

ومثاله وثيقة القادر بالله ، أحمد بن إسحق ، أو الوثيقة القادرية ، التي أنهت الرأي العربي في مسائل كثيرة ، وجمدت الدين والديانة ، وكانت هي وغيرها من منتجات

الاســـتعجام ، وغلبة العجم على الأعاجم (العرب غير معربي اللفظ) والعرب.

تعميم التعليم المعتقدي لكســـب ولاء أهل الأمصـــار وهم أطفال. وهذا نقل الآثار الســـابقة إلى طور التعميم ، بعدما كانت محدودة في حدود طبقتي الفقهاء ، والســـاســـة ، ونجا من ذلك أهل بعض المناطق المعزولة بفعل الجغرافيا ، داخل وخارج حدود الدول الإسلامية المتعاقبة ، فبات الفهم المتأتي من العناصر السابق شرحها ، يسبق القرآن إلى عقول الناشئة ، وسادت المعاني التي فرضتها السياسة وما صنعته من ديانة ، أســبق إلى وعي عامة المســلمين من تدبر القرآن والتاريخ ، وهذا أنشـــأ عقلا ، أو بالأحرى "لا عقلا" ، إســـلاميا شعبيا جديدا ، كان كل من يحكم ينافقه ويتحالف معه ضد أي فكرة قد تتناقض معه ، ولم تعدم الأمة في ذلك الحين اســـتنارة بعض الفقهاء والمتكلمة والفلاســـفة ، لكن هذه الاستنارة كانت محصورة في طبقة الإنتلجنسيا ، ولم تصل للعامة قط.

ومثاله المدارس النظامية التي أسسها نظام الملك ، فطغت على كل مؤســـســـة دينية شـــعبية تخص أهل كل مصـــر من الأمصار.

ولن نســـتمر على خط الزمن أكثر ، في هـذا الجزء ، لأننـا سنفصل الكلام عن المفصل الأخير من مفاصل نشأة الديانة الإسـلامية الشـائعة اليوم ، في الجزء القادم من المقالة ، وهو مركب من عدة عناصر ، ويحتاج حديثا مستقلا ، وهو مختلف السياق عن المفاصل الأربعة التي تناولناها هنا ، وهو مدخلنا إلى حديث يأتي بعده عما بات يسمى "إسلاما سياسيًّا" اليوم.

عالجنا ، في الجزء السابق ، مفاصل تطور النسخ المختلفة من الديانة الإسلامية ، وهي المسيرة التي اشتركت بها غالبية النسخ ، ووعدنا بمتابعة الحديث وتغطية مفصل جديد ، يختلف في سياقه عما سواه من المفاصل السابق ذكرها ، وهو متعلق بما بات يعرف اليوم بالإسلام السياسي.

لأن الوطن العربي ، كما سبق أن شرحنا ، يجثم على أهم المعابر البحرية في العالم ، فهو كان هدفا لكل الدول "الاستعمارية" بعد عصر النهضة الصناعية ، فشهدنا حملة نابليون التي حاولت السيطرة على طريق التجارة الذي بات الآن قناة السويس ، وهنا اصطدم العرب بحقيقة أن أوروبا قطعت أشواطا في طريق الصناعة والتحديث والطباعة والنشر ، والواقع العربي يبدو أمام أوروبا بدائيا إلى حد كبير ، ولا ننسى أن الاحتلال التركي الذي استمر لقرون باسم الدين ، خلّف العرب وهم أقلّ عددا ، وقضى على التعليم في حواضرهم ، وتسبب بعصر انحطاط جديد في الأدب ، وما إلى ذلك من المصائب الحضارية التي شكّلت حاجزا بين العرب وبين ماضيهم.

بقي الماضي يتسم بالشاعرية عند العرب ، واستعاد العربي كثيرا من تراثه ضمن نقلتين مهمتين ، أولهما هي التحديث

الذي قام به محمد علي باشـــا الكبير ، والذي شـــمل التعليم والتنظيم كأهم مفاصـــل غابت عن الحياة العربية لمدّة ، والنقلة الأخرى التي تهمنا بسـبب موضـوع حديثنا ، وهي في فترة عبد الناصـــر ، البعثة المصـــرية إلى اليمن ، التي أعادة اكتشـــاف كتب المعتزلة ، وهكذا بعث التراث العربي من جديد ليجد العرب أمامهم مهمة صـعبة ، وهي إحياء التراث ، وإعادة تشكيل الهوية العربية.

بـدا الأمر وكـأن الأمـة العربيـة أفـاقـت من غيبوبـة طويلـة ، وكانت ترى مخطط احتلال فلســطين الذي تحدثنا عنه في جزء ســـابق ، وهو قيد التنفيذ خطوة بخطوة ، مصـــحوبا بتقســـيم المنطقة العربية ، ولكن الوعي العربي كان متأخرا دائما عدة خطوات مهما بلغ من الاســتنارة ، وصــاحب ذلك دخول المســتشــرقين إلى بلادنا ، والتصــدي لكتابة تاريخنا المجهول ، ورغم أن الطرح الاســتشــراقي ليس واحدا ، إلا أن الاســـتشـــراق بحد ذاته كعملية ، وما ترتب عليه من ردود أفعال ، ومن عمل استخباري كان هو جزءًا منه ، والاستعمار الذي أعان عليه ، كلها تدخل كمفصـــل جديد في نشـــأة الديانة ، سنسميه باسم الاستشراق.

الفكرة هنا تتعلق بأن الديانات العربية السابقة تغيرت عندما سافرت إلى أوروبا ورجعت لنا ، وهذا سابق على الحقبة التي تحدثا عنها هنا ، ولكنه مماثل له من حيث العملية ، فكما ترجم القس الأوروبي كلام القســاوســة العرب فخلط بين أب

ورب ، وبين القصـــص الشـــعبي وبين الـديني ، وعـادت لنـا الترجمـة فترجمنـاهـا بـدورنـا إلى معنى آخر ، فقـد ارتحلـت الثقافة العربية إلى معامل الغرب مع المستشرقين ، وصنّعت وعـادت على يـد الـذين تلقوا تعليمـا غربيـا ، وصـــحب ذلـك أخطاء في الترجمة وخلط في المفاهيم.

ونتيجة لكره الاســتعمار ، بدأت القوماوية الشــعبية العربية تعود لهويتها الإســلامية بقوة ، وكان الطرح القومي العربي الفكري لم يزل في بدايته ، وانتبه الغربيون لذلك فاستهدفوا الثقافة الإســلامية ، وتصــدوا لها بالدراســة ، وصــحب ذلك خلط كبير في المفـاهيم ، بـالإضـــافـة إلى أن نتـائج هـذه الدراســات كانت توظف لتحقيق الأطماع "الاســتعمارية" ، وصحب ذلك عمل استخباري مبني على كل ما سبق.

وعند إعادة اكتشــاف الذات العربية ، كان ثمة فقه جامد آت من عصور مقدسة ، وخلط كبير في المفاهيم آت مما مرّ بطور الاســتشــراق من تراثنا ثم عاد لنا ، ورغبة شــعبية عارمة عند الأمـة بتحقيق ذاتهـا ، ومخطط وراءه وعي يســبق وعينـا بخطوات ، وهذا الصــراع بيننا وبينهم لعب دورا في تطورنا المعرفي ونظرتنا إلى أنفســنا ، أي أنه لعب دورا في تشــكيل الذات العربية الحديثة ، التي ليســت نتيجة إعادة اكتشــاف الذات القديمة فقط.

هنا وخلال هذه السيرورة ، صعدت فكرتان ، الأولى هي أن الإسلام عامل مقاومة شعبي للمستعمر ، تصدى له الاستعمار بالتفكيك والتعديل ، وواجه واكتسب نوعا من الثقة عند المجتمع العربي ، والثانية هي الجدل القائم بين التحديث والأصالة ، ويمكننا التعبير عنه ، بالسؤال المحوري فيه ، وإن لم يكن قد طرح صراحة: هل نجعل القرآن دستورنا ؟ وهو الذي تفصلنا عهود طويلة عن وقت نزوله ، وهو نص خلافي بين المسلمين ، لاسيما في تنوع التفسيرات ، والفقه المجدول معها ، أم هل نبني دساتيرنا على النمط الغربي حتى نبني دولا أو دولة حديثة ، تكون أهلا للمواجهة ، مع المستعمر المتطوّر ؟

وقد تنوعت الإجابات ، وأهم نتائج هاتين الفكرتين كان ما يسميه الباحثون اليوم "إسلامًا سياسيًّا" ، وهو يتمثل بمجموعة من الحركات ، لكل منها ظروف نشأته ، فثمة من ينادي بدولة سلفية تطيع الملك المتغلب بالسيف ، وهذه تمسك الإسلام من طرف التراث الأمويّ ومتعلقاته في العصور اللاحقة ، وثمة من ينادي بدولة يقودها آل البيت ، وهذه تمسك الإسلام من طرف التراث العلويّ ، ومتعلقاته في العصور اللاحقة ، وثمة من ينادي بإصلاح ديني ثقافي يشق طريقه للسلطة من أسفل إلى أعلى ، وكان بداية ذا صبغة أشعرية ، ويلاحظ الناظر في كل هذه النتائج أنها مستعجلة ، فالأمة وجدت نفسها على تماس مع مشاكل الحاضر ومشاكل الماضي دفعة واحدة ، فأنّا لها أن تستقرّ

على رأي ، لاسـيما وأن الحدود القطرية الجديدة شـكّلت أجواء منفصلة لتطور الحركات الإسلامية السياسية.

ولا ننسى من رأى في العودة لمشاكل الماضي إعاقة لمسيرة الأمة ، ورأى أن يتعامل مع الإرث الإسـلامي كما تعاملت الدول الأوروبية مع الديانة المسـيحية بنسـخها المختلفة ، ونادى بما يسـمّى "فصـل الدين عن الدولة" ، وهي تسـمية خاطئة تظنّ الدين ديانةً ، فتنادي بدولة حديثة بعيدا عن المعتقد ، أي أنها تملك عقدا اجتماعيّا (ما نسـميه نحن العرب دينًا) ، غير متأثر بالديانات ، إلا كعوامل ثقافية ، وخيارات فردية.

ولأن الديانة الإسلامية كانت نتيجة التطور السابق شرحه ، فقد انجدلت مع الدين ، لاسـيما في طور إعادة الاكتشـاف ، وأصـبح إظهار التباين بين الديانة والدين أمرا صـعبا ، يلزمه الغوص في التراث العربيّ كله بأدوات العصر الحاليّ ، لاسيما التراث الإسلامي منه ، ولأنه يتمتع بقدسية ارتباطه بالمعتقد ، وعجن عجنا بتصـورات طفولية عن الإسـلام ، فقد ارتطم بصخرة الواقع حتى أدمى نفسـه ، وأدمى الأمة العربية ، التي باتت تعيش هذا النزاع بين الحاضر والماضي بصورة يومية.

التفسـيرات الحديثة للتراث في أغلبها معيبة ، والفصـل بين الديانة والدين بات ضـروريا لفهم التراث ، والعيب الأكثر

فتكا فيها هو أنها مختلفة المشـارب ، تتقاطع في التسـميات القادمة من الماضـي السـحيق ، ولا تنطبق هذه التسـميات على المسـميات نفسـها ، فالحوار شـبه مسـتحيل بينها دون توحيد الأرضـية التي تقف عليها ، وبتنا نرى إسـلاميّا ، لا يعدّ سـواه من الإسـلاميين مسـلمين إلا لغايات المباهاة بالعدد ، وهو يكفرهم كلهم ، فمـا بـالـك والحوار بين الـديـانـات والمذاهب يقوم تحت رعاية الغرب الأطلنطي "الاستعماري" ، أو تحت الأنظمة الوظيفية التابعة له ؟! والتبعية قد تكون موجبة أو سالبة ، فحلّها إن استطعت!

والفكرة الأكثر خطرا هي أن الإسـلاميّ خرج محاربا قومه ، فانتفت عنه تسـمية "مسـلم" ، وهو لا يؤمن مجتمعه على العقد الاجتماعي نفسـه ، ولذلك فقد انتفت عنه تسـمية "مؤمن" ، ونحن نتحدث هنا عن التسـمية بمصـاديقها القديمة ، ولذلك فنحن أمام كفّار يحتكرون علامة (الإسلام) ، التي باتت علامة تجارية بكل ما تحويه الكلمة من معنى.

فنحن الآن أمام إسـلام جديد ، وبما أنه شـيء جديد ، فيجدر بنا أن نسـميه اسـما جديدا ، وسـنطلق عليه اسـم (الإزلام) ، وقد سبق لي أن كتبت في هذا الموضوع مقالة ، يمنعني من ضـمّها لهذه المقالة أنها تسـتقل بنهجها ، وبمعجمها اللغوي عن هذه المقالة ، اسـمها لمن شـاء أن يقرأها (الإزلام | دين السـندباد) ، منشـورة في موقع (راديكال) ، وها نحن أمام إسـلامَين ، أحـدهمـا نظـام متحرك متغير قـابـل للتطوير

والتطور وقد يلعب دورا في توحيد الأمة العربية ، وتأسيس أساس صلب للعلاقة مع الأمم الأخرى المنتسبة للملة الإسلامية ، والآخر جامد متحجّر متفرق فرقا شتّى ، واحدتها ترى نفسها على الحق المطلق وترى نظيراتها باطلا محضا.

وسنمرّ في الجزء اللاحق على محاولة حلّ هذه المعضلة ، وكيف لنا أن نتجاوز هذا الطور العجيب الذي تمرّ فيه الأمة العربية ، وتعقيدات هذا الحلّ إن وجد.

نظرنا خلال المقالة في أجزائها السـابقة نظرة شـمولية ، إلى تحول النظام العربي والذي هو الدين الإسلامي ، الذي شكّل طورا من أطوار الدولة العربية ، إلى ديانة ومعتقد ، ثم عودة هذا المعتقد مرة أخرى لساحة السياسة ، على صورة "الإسلام السياسي" ، بطروحاته المختلفة من وهابية وإخوانية وإمامية وسواها.

في هذا الجزء نعتزم البحث في حلّ هذه المشـكلة ، وتقديم رؤيـة جـديـدة تسـمح لإعـادة تـأهيـل الإسـلاميّ القيـاسـيّ (الإزلاميّ)، ليكون إنسانا طبيعيا ، وتلمّس الطريق لاكتشاف مخرج للأمـة العربيـة من هـذه الحفرة العميقـة ، ولكي يكون تفكيرنا منتجا لابد من حصـر محاور الحديث ، والأسـئلة التي نعتزم إجابتها هنا ، وهي:

من هو الإزلاميّ ؟
ما هي مشكلتنا معه ؟
ما هو التحدّي الأكبر أمام الأمة العربية ؟
ما هي الحلول المقترحة لهذا التحدّي ؟
ما العقبات التي تقف أمام هذا الحل ؟

الإزلام هو ديانة جامدة ، جاءت من خلال تعديلات متعددة على النظام الإسلاميّ ، آخرها هو سبب التسمية ، وهي أن الفهم المتأثر بالاستشراق للإسلام هو السائد اليوم في حقل الديانة الإسلامية ، ولفظة إسلام في اللغة الإنجليزية السائدة في عالم اليوم ، هو إزلام ، حيث يلفظون حرف أس زايًا لوقوعه بين حرفي علة ، وقد صادف هذا اللفظ اشتقاقا من جذر (زلم) العربي ، والمعني بكل ما هو جامد.

الإزلاميّ هو المصدّق بالديانة الإسلامية حديثة النشوء ، والذي إلى جانب تصديقه بالمعتقد ، يحمل الطرح الاجتماعي السياسي من ديانته إلى الواقع السياسي والاجتماعيّ ، أي أنه يرى أن تصوّره عن "الإسلام" هو العقد الاجتماعيّ الوحيد المقبول ، وهكذا فهو يرفض الدستور والقانون ضمنا ، حتى وإن لم يصرح بذلك ، بل وحتى إن صرّح بعكس ذلك ، لأن الذي يرى هذا الرأي لا يقبل أي عقد اجتماعي آخر ، إلا على سبيل أنه خطوة لتحقيق العصر الذهبي الذي ينتظر ، عصر "الخلافة الراشدة" في آخر الزمان.

مشكلتنا معه تتلخص بأن طرحه السياسي غير الواقعي ، وغير القابل للتطبيق ، يتداخل مع تعليم أبنائنا ، بسبب أننا نعلّمهم الديانة الإسلامية ، بصورتها الحديثة المتوارثة من عصر كتابة المناهج العربية الحديثة ، وأن مجتمعنا يظنّ أن إلغاء سيادة هذه الديانة على العقول يعني إدخالنا في فوضى

أخلاقية ، ومعرفية ، وهكذا فنقع نحن كما وقع آباؤنا ، وكما سيقع أبناؤنا ، تحت تأثير قوتين متنافرتين:

قوة تجذبنا للمستقبل والعصر ، للعقد الاجتماعيّ الحديث ، لدولة القانون ، والمساواة بين المواطنين جميعهم ، للوحدة العربية ، للتطور التقني والعلمي ، للتصدي لقضايا الأمة والدولة والمجتمع ، لتحرير الأرض المسلوبة ، ولتحرير الإرادة المستلبة ، للفضيلة الخالصة غير المتعلقة بثواب وعقاب ، لحرية المعتقد ، ولحرية الإنسان من قيود الماضي والميتافيزيقيا.

وقوة أخرى تجذبنا لصورة متوهمة عن الماضي ، لشريعة غير واضحة ولا تحظى تفسيراتها بالإجماع العربي ، ولعقيدة مثلها ، للاقتتال باسم الديانة والمعتقد ، لتراث أمويّ أو علويّ أو شعوبيّ ، للتصدي لمشكلات فتاوى الحيض والنفاس ، وحلّ الموسيقا أو حرمتها ، وحكم مصافحة الرجل للمرأة ، لشعور جماعيّ بالذنب ، لعقلية بعيدة عن المنطق ، لفضيلة معتمدة على رضا الكهنة ، تستعبدنا لهم ، وتقنعنا بصورة جبرية عن التاريخ ، فمشيئة الكهنة ، سابقة على مشيئتنا ، حتى نرتكب أرذل الرذائل باسم الله!

وهكذا فمشكلتنا مع الإزلام والإزلاميين فينا نحن أكثر مما هي فيهم ، لأننا نطالب أنفسنا بإجابة لأسئلة الماضي

والحاضر معا ، ولا نفتح المجال لنقاشهم ضمن دولة القانون الناشئة ، لأنها بسبب تبعيتها للغرب ، ما تزال تحابي أصحاب هذا الطرح في علاقة محرمة بين أصحاب النفوذ السياسي ، وأصحاب النفوذ الإزلاميّ ، وهكذا فنحن مرتهنون للمستفيدين من الوضع القائم ، من ساسة متغطرسين وكهنة إزلاميين ، كلّهم تهمّهم مصالحهم الطبقية فقط ، ولا يبالون بمصلحة الجماعة كلها.

التحدّي الأكبر الذي تواجهه أمّتنا الواحدة\العربية ، في هذه المرحلة ، هو حسم الخلاف بين النخب ، حول حجر الأساس في نظام الدولة ، وحسم الخلاف المجتمعي حول العقد الاجتماعي ، فهل نبنيه حسب الدليل الإزلاميّ لإقامة "دولة الخلافة" و"الدولة المسلمة" ، أم نبنيه حسب الطريقة الحداثية "الغربية"؟ قرآن أم دستور؟ شريعة أم قانون؟

الحل في رأيي ، والذي قدّمت له من قبل بحيث أصرّح به هنا باختصار ، هو: دولة الدستور والعقد الاجتماعي العربي ، التي تكسر احتكار الإزلاميين لاسم الإسلام ، وتوظفه كتراث عربيّ سياسيّ يبنى عليه دستور لدولة حديثة ، دولة قانون تساوي بين مواطنيها كلهم ، يكون إسلامها قابلا للتطوير والتعديل كما كان أيام الرسول وخلفائه الأوائل ، قبل مفاصل التحوّل التي عرّجنا عليها ، يعاد تشكيله بصورة مرنة ، لكي يحقق مقاصده الأولى في مصلحة الأمة الواحدة ، حيث يكف الجميع أذاه ليكون مسلما ، ويحفظ مجتمعه

ويؤامنه ليكون مؤمنا ، بغض النظر عن معتقده عن عالم الغيب ، إسلام علمانيّ كما كان وقت نشأته.

هذا الخطاب خطاب جامع لا يفرّق ، مبشّر لا ينفّر ، ورغم لونه الورديّ ، فهو يواجه عقبة كئودًا ، وهي كيفية التعامل مع الديانة الإسلامية الجديدة ، كيفية التعامل مع الطرح الإزلاميّ ، ونحن كمن ابتلع سكينا إن بصقه جرحه ، وإن سكت عنه قطّع أحشاءه. فما العمل!

لنتخيّل أن الدولة القطريّة ، واجهت التحدّي بأن تسترجع اسم الإسلام ، لتوظفه في مكانه الصحيح ، وتسمّي كل مواطن مهما كانت ديانته ، حتى وإن كان يدين بالإزلام ، باسم مسلم ، ما دام لا ينتهج الإرهاب ، وتخاطب الناس خطابا يشدد على أن الإيمان هو عقد اجتماعيّ للناس ، وتسمّي قانونها باسم الشريعة الإسلامية ، وتضع في قانونها موادّ تجرّم تكفير الناس ، وتمنع تدريس الديانات في المدارس ، وتؤسس لجدال منفتح حول التراث ، يدخل فيه المفكرون ضدّ كهنة الإزلام ، ويكون هذا النقاش في الجوامع ، ليعود لها اسمها ، تحت وصاية الدولة الإسلامية العَلمانية التي تحتكر العنف ، نقاش يستأنف الحوار الحضاريّ ، ويذيب السكين الإزلامية في حلق هذه الأمة إلى غير رجعة.

فلنلاحظ أن الدولة المتخيلة ، الواردة في الفقرة السابقة ، تلبّي الميل الشعبي من الجهتين ، وتحرّك القوة التي تجذبنا للماضي بحيث تعمل في اتجاه القوة المتنافرة معها ، فلا تكون محصلة القوتين صفرا حضاريا مازلنا نلوكه منذ العصر العباسيّ المتأخر ، بل قفزة حضارية في فهم تراث الأمة ومستقبلها ، تعمل عمل الأنزيم الذي يسرع التفاعل الحضاريّ المطلوب ، فهي دولة عَلمانية حديثة ، لا تقارب الإسلام على خجل ، فهي دولة إسلامية أكثر من أي "دولة مسلمة" موجودة على خارطة الوطن العربي الحالية.

هذه الدولة تتبنى خطابا جامعا لأبناء الأمة العربية ، لا تستطيع أي دولة عربية أو "مسلمة" أن تتجنب شيوع هذا الطرح بين أبنائها ، فتحيّد الطرح الإزلاميّ تماما ، وتطرح قضايا مصلحة الأمة ، من وحدة وتحرير ونهضة ، لأنها الجواب الوحيد على سؤال التحديث والرخاء ، ولهذا فنفوذها حاضر بين أبناء الأمة كلهم ، وفي الوقت نفسه ، هي تستأنف الجدل داخل الدول القطرية الأخرى ، "مسلمة" كانت أم "ليبرالية" ، لأننا في عصر الاتصال الفائق ، وهي تورّط الكهنة في البحث في التاريخ المحرّم ، وتزيل القدسية عن طروحات الكهنة من أي ديانة كانوا ، وتمنع تبعية أفرادها إلى كيانات خارجية ، سواء كانت كنيسة غربية أم شرقية ، أم هيئات علماء المسلمين في الشرق أم الغرب ، وهي تطرح الأسئلة الصائبة ، التي تنهض بالعقل العربي مرة آخرى.

في هذه المقالة ومقالات سـابقة مثل: "النزعة العلمانية في الإسلام"، و"الإزلام| دين السندباد"، و"رحم الجارية| قراءة نقدية في مفهوم السـنة النبوية"، و"قفاز القرآن"، و"لنتكلم في الله | بحث في الذات الإلهية في الإسـلام"، وسـواها... قدّمنا مساهمتنا في إعادة اكتشاف الإسلام، من أفكار يعضد بعضـها بعضـا، في سـبيل تثوير الإسـلام وإعادته إلى كونه نظاما جامعا، لا ديانة أو ديانات متفرّقة مفرِّقة، أطمح أن تكون في مجملها، إلى جانب أعمال الذين تصـدّوا لحل المعضلة العربية الإسلامية، مقدّمة خلاص هذه الأمة.

لكن لنكن واقعيين فكل هذا نقاش في البنى الفوقية، يلزمه بنية تحتية تقف عليها إرادة سياسية تتبنى مثل هذا الطرح، وغير هذا فهو حبر على ورق، لا حضـور له في عالم الواقع، قد تبدأ بحزب سـياسـيّ يتبنى هذه الطروحات، ويتكئ عليها للوصول لقطاع عريض من الناس، ثم يصل للحكم ويطبّق هذه الأفكار، كحركة إصـلاحية، أو حركة ثورية، وبغير هذا فهي لن تكون أكثر من دواء فرديّ لشعور المسلم بالذنب، واحتقار الذات العربية، والضـعف أمام الطرحِ الإزلاميّ، أي أنها قد تصبّ في مصلحة الدولة القطرية الليبرالية، وتجفيف منابع الإرهاب فكريّا. لكن لحسـن الحظ، فتراثنا الذي نجد فيه الديني/السـياسـي/الجماعي مجدولا بالمعتقدي/الشـعائريّ/الفرديّ، يضـيّق على من يريد استغلال هذا الطرحِ في استتباعنا للغرب أكثر.

انتهى